

## راهنية "البيان الشيوعي" والحاجة الى قراءة صاحبة ومعاصرة

د. صالح ياسر

### بعض الملاحظات التمهيدية الضرورية

يصادف عام 2018 الذكرى الـ 170 لصدور "بيان الحزب الشيوعي" (وللاختصار سنشير له لاحقا "البيان"). ولاشك ان احياء هذه المناسبة تنطلق، بالنسبة للماركسيين والشيوعيين من الأهمية التاريخية التي يكتسبها "البيان" بوصفه الوثيقة البرنامجية النظرية والعملية الاولى التي جسدت فيها ماركس وأنجلس تجسيدا كاملا رؤيتهما الخاصة في حينه لكل ما يتعلق بالحركة الثورية التي كانت (ولاتزال وستبقى) تمثل مستقبل البشرية وتقود إليه: **فكرا وسياسة وتنظيما**.

واكب نشر "البيان" في شباط/فبراير 1848، تقريبا في نفس الوقت، انفجار الثورة في كافة أنحاء أوروبا. كانت علامات التمرد موجودة قبل ذلك بكثير. فقد كان الحكام المسيطرون في عموم أوروبا عاجزين عن تقديم أشد الإصلاحات الديمقراطية أساسية، أو كفالة مستويات معيشة ملائمة. ففي إيطاليا وألمانيا، حيث لم تكونا بعد موحدة كأمم وإنما كانت تضم عدداً من الدويلات الصغيرة، وكذلك في جزء كبير من الإمبراطورية النمساوية التي كانت تضم عدداً كبيراً من القوميات، كان الشعور طاغيا بضرورة التحرر الوطني، كما كان في بولندا والإمبراطورية الروسية. وفي كل مكان ظهرت المطالبة بنهاية الأوتوقراطية والسلطات المطلقة للملوك والأفراد. وعكست الاحتجاجات السياسية حالة التأييد للجمعيات التأسيسية والبرلمانات والإصلاحات القانونية. وكانت المطالب الإصلاحية تعكس الصدام بين الطريقة القديمة في تنظيم العالم وبين الطريق الجديدة. فكما تنبأ ماركس وإنجلس بالفعل كان انتشار التطور الرأسمالي يزيد من الشعور بتأثيره سياسيا واجتماعياً قلما حدث بالنسبة للاقتصاد. فقد اتجهت المدن والأحياء الجديدة والصناعات والحرف الجديدة لأن تشكل مراكز لمعارضة الإقطاعية، التي كانت تعتمد على الكنيسة الكاثوليكية، والملكية والأرستقراطية وكبار ملاك الأرض. وكانت الطبقة الرأسمالية الناشئة، وصغار أصحاب المعامل، والمحامون والطلاب وفقراء الفلاحين، الأعداد المتزايدة من العمال، تحتك في صراع مع هذه القوي المحافظة. واعتقد مؤلفا "البيان" أن تحالفا من هذه الطبقات المختلفة سيشكل أساس الثورة الديمقراطية التي كانت على الأبواب.

لم يكن ممكنا أن يتعزز الحماس من أجل الثورة في أوروبا إلا بسبب الظروف الاقتصادية والاجتماعية الفظيعة التي وجد كثيرون أنفسهم فيها في أواخر أربعينات القرن التاسع عشر، فكانت هناك مجاعة في أوروبا.

وهكذا يعد عام 1848 واحدا من السنوات العظام حين بدت الثورة مرغوبة وممكنة في ذات الوقت، وانتشرت في كل أنحاء أوروبا. ومع تفجر الانتفاضات اندلع الصدام في شوارع فينينا وبرلين بين النظام الإقطاعي والطبقة الرأسمالية الصاعدة، وبدا أن العالم القديم المكون من طبقة صغيرة ومستبدة وطفيلية تحكم فقراء الفلاحين كان يقترب من نهايته. ولذلك كان مطلب التوحيد الوطني مركزيا لدي العديد من الديمقراطيين، بينما رأى ماركس وأنجلس أن يكونا على أقصى يسار الحركة الديمقراطية وأن يؤيدا المطالب التي شعروا بأنها ستؤدي حتما إلى التوحيد. فالثورة البرجوازية في ألمانيا ستقود كما اعتقدا، بسرعة شديدة، إلى ثورة الطبقة العاملة. وكان الشيوعيون يركزون انتباههم بشكل رئيسي على ألمانيا، لأن هذا البلد كان على مشارف ثورة برجوازية، والمحتم أن يتم تحقيقها في ظل أوضاع أكثر تقدماً في الحضارة الأوروبية، إلى جانب بروليتاريا أكثر تطورا بكثير من البروليتاريا في إنجلترا القرن 17، وبروليتاريا فرنسا في القرن

18، ولأن الثورة البرجوازية في ألمانيا لن تكون إلا مقدمة للثورة البروليتارية التي ستليها على الفور.

لقد بين مؤلفا "البيان"، في مقدمة إحدى طبعاته الألمانية (طبعة عام 1872) أن عصبه الشيوعيين أرادت أن يكون "البيان" برنامجاً مفصلاً للحزب، نظرية وتطبيقاً، هادفة إلى نشره لتعلن مبادئها وغاياتها. فقد كان الكتاب النادر في التاريخ الذي يقدم المثال على امكانيات فعل الفكر في الواقع، وعلى امكانيات فعلية أن يتحول الفكر إلى قوة مادية تتبناها الجماهير وتدافع عنها.

بهذا المعنى يمكن القول أن ماركس و أنجلس كتبا "البيان"، ليس كوثيقة تجريدية بل كدعوة للعمل، و ليس كدليل بل كبرنامج لإطلاق الحزب الثوري و ليس كنادي للحوار.

واضافة لذلك لا بد من بعض الملاحظات الضرورية هنا:

1. "البيان الشيوعي" وثيقة تاريخية، فكرية كفاحية، لعبت دوراً تحويلياً، وتركت تأثيرها على التطور العالمي ومساراته الكبرى. لذا فإن أية محاولة لنفي كل تأثير لـ "البيان" ما هي إلا محاولة فاشلة لجملة أسباب، في مقدمتها أن الحلقة الأهم فيه و التي تبقى راهنة، هي فضح وتعرية جوهر الرأسمالية وطابعها الاستغلالي والتوسعي، وضرورة النضال ضدها عبر استبدالها بنظام آخر، لا استغلال فيه هو النظام الاشتراكي.

2. ان البيان ذاته، مثل أية وثيقة تاريخية، ينبغي النظر إليه، وقراءته، على أساس الظروف التاريخية التي صدر فيها والمعطيات التي انطلق منها. وبذلك وحده نستطيع رؤية ما شاخ منه وما لا يزال يحتفظ بحيوته وأهميته<sup>1</sup>.

3. لقد تضمن "البيان" العديد من المفاهيم والمقولات والمبادئ، التي لا تزال تحتفظ بالكثير من فعاليتها وقوتها (التفسير المادي للتاريخ، الصراع الطبقي، نظرية الحزب.... الخ). فمثلاً يؤكد "البيان" على التالي: "ان الإنتاج الاقتصادي والبناء الاجتماعي، الذي ينشأ بالضرورة عنه، يؤلفان في كل عهد تاريخي أساس التاريخ السياسي والفكري لهذا العهد؛ لذا فالتاريخ بأسره (منذ انحلال الملكية البدائية المشاعية للأرض) كان تاريخ نضال بين الطبقات المستثمرة والطبقات المستثمرة، بين الطبقات المسودة والطبقات السائدة في مختلف مراحل التطور الاجتماعي"<sup>2</sup>.

4. جاء "البيان" والذي دعيا ماركس وأنجلس فيه إلى إقامة حزب سياسي بروليتاري عمالي، في مناخ كانت مظاهر الغضب والإحتجاج تحصل بصورة عفوية وبدون تنظيم مركزي. كان ذلك يحصل في المصانع ومواقع العمل دون أن يكون بينها رابط كفاحي منظم - أي حزب يجمع الجميع في نضال مشترك ويمنحهم أكثر قوة وأكثر تأثيراً على أرباب العمل والنظام السياسي الذي يسانداهم ويعير عن مصالحهم. ومني العمال وحركاتهم الإحتجاجية بهزائم عديدة على مدى القرن التاسع عشر بسبب عدم وجود هذا التنظيم.

<sup>1</sup> قارن: يوسف فيصل: قراءة في البيان الشيوعي بعد الانهيارات الكبرى وفي ظل العولمة، "دراسات اشتراكية"، العدد 174، تموز- آب/1998، ص 5. فقد لمس ماركس وأنجلس باكراً وأوضحا في مقدمة الطبعة الألمانية إن البيان "قد شاخ... في بعض نقاطه، نظراً للرقى العظيم في الصناعة الكبرى خلال السنوات الخمسة والعشرين الأخيرة"  
<sup>2</sup> انظر: ماركس، أنجلس، بيان الحزب الشيوعي (موسكو: دار التقدم، 1974)، مقدمة الطبعة الألمانية عام 1883، ص 31.

في أواخر عام 1847 وأوائل عام 1848 كتب ماركس وانجلس "بيان الحزب الشيوعي" <sup>3</sup> بتكليف من مؤتمر عصبة الشيوعيين المنعقد في لندن في شهر تشرين الثاني عام 1847. وفي شباط 1848 تم نشر "البيان" في لندن باللغة الألمانية، ثم ترجم الى اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وانتشر بعد ذلك تباعا بكل اللغات الحية تقريبا، ليدخل في عداد الكتب الاولى في العالم من حيث عدد اللغات التي ترجم إليها وعدد الطباعات التي صدرت منه في كل تلك اللغات. ومن المفيد التذكير أن الترجمة الاولى لـ "البيان الشيوعي" للغة العربية تمت بعد ثورة اكتوبر العظمى (1917) مباشرة، وقد قام بهذه الترجمة ميخائيل خطايا المولود في دمشق في عام 1853 والمتوفي في موسكو عام 1924. ومن الجدير بالذكر أن ميخائيل خطايا وصل الى روسيا في عام 1873 واشتغل في (معهد لازاريف للغات الشرقية)، ووضع عددا من الكتب على رأسها قاموس عربي - روسي كبير. وفي عام 1933 قام الرفيق خالد بكداش بترجمة "البيان" الى العربية. وكذلك فعل الراحل الرفيق علي يعته، السكرتير الاسبق لحزب التقدم والاشتراكية.

ويمكن الاتفاق مع آراء العديد من الباحثين <sup>4</sup> التي ترى أن "البيان" لم يكن مؤلفا نظريا فقط، رغم ما فيه من اسس وملامح نظرية، ولم يكن برنامج نضال عملي فقط، رغم ما يتضمن من نقاط برنامجية تتجلى بخاصة في المبادئ العشرة التي جاءت في خاتمة فصله الثاني، كما انه لم يكن صرخة ايديولوجية تحريضية، رغم ما فيه من هجاء للبرجوازية ونظامها الرأسمالي وتحيز للبروليتاريا ومحاولة لاذكاء وجدانها الثوري ودفعها الى مزيد من وعي الذات (التحول لطبقة لذاتها) بوصفه اساساً لا بد منه لتغيير العالم.

كما يمكن الاتفاق أيضا مع الفيلسوف الفرنسي المعروف (لوسيان سيف) <sup>5</sup>، الذي أشار الى أن "البيان" نص سياسي من أهم النصوص السياسية المكتوبة أبدا، وهو - رغم حرصه الى ان يكون شعبيا - نص نظري للغاية. أما (لينين) فقد اشار الى القيمة التعبوية لـ "البيان" بقوله: "هذا الكتيب غير الكبير يعادل مجلدات كاملة، بروحه تعيش وتتحرك حتى الآن كل البروليتاريا المنظمة والمناضلة في العالم المتمدن" <sup>6</sup>.

أجل، ليس "البيان" واحدا فقط من تلك الجوانب التي ذكرناها، وانما هو كلها، مندمجة ومتفاعلة:

- إنه التحليل النظري وقد تمخض عن شعارات وبرامج وتوجهات عمل؛
- والبرنامج العملي وقد جسد قراءات واستخلاصات نظرية؛
- والموقف الايديولوجي وقد خيمت روحه الثورية على القراءة والموقف.

وانطلاقا من ذلك يمكن القول ان "البيان"، من بدايته الى نهايته، ينهض على أربع مرتكزات تشكل الاسمنت المسلح له:

- مفهوم فلسفي: منظور التطبيق؛

<sup>3</sup> من المفيد الإشارة الى انه وفي البداية بدأ أنجلس المشروع، وكتب كتابا صغيراً بعنوان "مبادئ الشيوعية" والذي يوصف أحيانا بـ "المسودة الأولى للبيان" والذي أطلق عليه أسئلة وأجوبة في الشيوعية. ففي هذا الكتاب حاول أنجلز أن يجيب على كثير من الأسئلة الرئيسية حول الأفكار الشيوعية التي أثارها مؤيدوها المرشحون. غير أن شكل الأسئلة والأجوبة في "مبادئ الشيوعية" كان في الواقع نقطة البداية لبيان الأهداف، ولكنه لم يكن إلا "هيكل عظمياً" لما أصبح فيما بعد "البيان".

<sup>4</sup> قارن على سبيل المثال لا الحصر: لوسيان سيف، نظرية وسياسة، "النهج"، العدد 1998/50؛ كذلك: د.ابراهيم قندور، من ملامح البيان الشيوعي، "دراسات اشتراكية"، العدد 174، تموز/اب/1998، ص 10 ولاحقا؛ كذلك: عطية مسوح، بعد مئة وخميس عاما ما الذي بقي من البيان الشيوعي؟، "دراسات اشتراكية"، العدد 174، تموز/اب/1998، ص 40.

<sup>5</sup> قارن: لوسيان سيف، نظرية وسياسة...، مصدر سابق، ص 139

<sup>6</sup> ورد الاقتباس في: نخبة من الاساتذة السوفيت، الحركة العمالية العالمية (قضايا التاريخ والنظرية)، المجلد الأول. ترجمة دنجاح ساعاتي (دمشق: دار الجماهير، 1985)، ص 529.

- **منهج منطقي: الديالكتيك الثوري ؛**
- **مفهوم** عن التطور الاجتماعي: **المادية التاريخية ؛**
- **وعلى منظور أناسي:** الانطلاق الحر للجنس البشري ولكل فرد كهدف بذاته للتاريخ.

## بنية (هيكل) " البيان "

قبل الحديث عن بنيته لابد من الإشارة هنا الى أن " البيان " بني على أربعة اعمدة هي:

- **قراءة واقع النظام الرأسمالي الجديد، وتحديد طبقيته الرئيسيّين** (البروليتاريا والبرجوازية) **والعلاقة بينهما؛**
- **رد التهم** التي توجهها البرجوازية للشيوعيين؛
- **عرض الأسس** التي يقوم عليها النظام الجديد؛
- **فضح الاشتراكيّات غير الشيوعية.**

يبدأ ماركس وأنجلس "البيان" بتوضيح الآتي: "هناك شبح يجول في أوروبا - هو شبح الشيوعية، وقد اتحدت كل قوى أوروبا العجوز في حلف مقدس لملاحقته والتضييق عليه... أيّ حزب معارض لم يتهمه خصومه القابضون على زمام السلطة بالشيوعية"<sup>7</sup>. واستنادا الى هذه الملاحظة **استخلص** ماركس وأنجلس **القضيتين** التاليتين:

- 1- أن الشيوعية أصبحت قوة معترفا بها من جميع الدول الاوربية.
- 2- أن الشيوعيين قد أن لهم أن يعرضوا أمام العالم بأسره مفهوماتهم وأهدافهم وميولهم، ويدحضوا شبح الشيوعية ببيان من الحزب، ولهذه الغاية اجتمع في لندن شيوعيون من مختلف القوميات في شباط 1848 ووضعوا "البيان الشيوعي".

يبدأ ماركس وأنجلس في "البيان" بتحليل اسلوب الانتاج الرأسمالي والذي طور القوي المنتجة بشكل لامثيل له في السابق، والذي يختلف عن اساليب الانتاج الاستغلالية السابقة (العبودي، الاقطاعي) بتوضيح: "أن البورجوازية لاتعيش إلا اذا ادخلت تغييرات ثورية مستمرة علي أدوات الانتاج، وبالتالي على علاقات الانتاج، اي على العلاقات الاجتماعية بأسرها"<sup>8</sup>. ويلفت ماركس وأنجلس النظر منذ وقت مبكر الى سيادة نمط الانتاج الرأسمالي على نطاق عالمي بالقول: "وبدافع الحاجة الدائمة الي اسواق جديدة تنطلق البورجوازية الى جميع انحاء الكرة الارضية. فينبغي لها أن تدخل وتتغلغل في كل مكان، وتوطد دعائمها في كل مكان، وتقيم الصلات في كل مكان، وباستثمار السوق العالمية، تصبغ البورجوازية الانتاج والاستهلاك في كل الاقطار بصبغة كوسموبوليتية. وتنزع من الصناعة أساسها الوطني... فتتقرض الصناعات الوطنية التقليدية القديمة أو تصبح علي وشك ان تتقرض، وتحل محلها صناعات جديدة يصبح ادخالها وتعميمها مسألة حيوية لكل الامم المتمدنة"<sup>9</sup>.

ان تطور التشكيلة الرأسمالية بعد 170 عاما يؤكد صحة تحليل "البيان"، فقد جددت الرأسمالية نفسها باستمرار وخاصة بعد الثورة العلمية - التقنية وثورة النقاثة عموما والتي طورت الانتاج بشكل لامثيل له في السابق من ناحية الكم والكيف، وتم تدويل عملية الانتاج بـ

<sup>7</sup> انظر: ماركس، انجلس، بيان الحزب الشيوعي (موسكو: دار التقدم، 1974)، مقدمة الطبعة الالمانية عام 1883، ص 39.

<sup>8</sup> المصدر السابق، ص 44.

<sup>9</sup> ماركس، انجلس، بيان الحزب الشيوعي (موسكو: دار التقدم، 1974)، ص 45

"فضل" نشاط الشركات متعددة الجنسية، بحيث أصبحت عملية الانتاج في الرأسمالية كونية الطابع.

أما من حيث بنيته فإن "البيان" يتألف من أربعة فصول.

يكشف الفصل الاول منه والموسوم: "البرجوازيون والبروليتاريون" عن الضرورة التاريخية للثورة البروليتارية بوصفها حصيلة التناقض الموضوعي بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج البرجوازية مما يولد احتدام التناقضات الطبقيّة بين الطبقتين الرئيسيتين: البرجوازية والبروليتاريا. ومع تطور الصناعة الكبيرة تنسحب من تحت اقدام البرجوازية القاعدة التي كان البرجوازيون يمتلكون بها المنتجات التي كانت تضيع مجهود الطبقة العاملة. وتنتج البرجوازية على هذا النحو حفاري قبرها. كما كشف هذا الفصل قوانين التطور الاجتماعي، وثبتت الطبيعة الحتمية والمحكومة بالقانون لعملية حلول اسلوب انتاج محل اسلوب آخر، أي تعاقب أساليب الانتاج.

لقد انطلق ماركس وانجلس من الحقيقة القائلة بأن تاريخ كل مجتمع تطور في الماضي – فيما عدا النظام المشاعي البدائي – كان تاريخ صراع الطبقات. واثبتا أن سقوط الرأسمالية حتمي، وبيّنا الطريق الى تكوين نظام اجتماعي جديد هو الشيوعية. وفي نفس الفصل أوضحا المهمة التاريخية للطبقة العاملة (البروليتاريا) باعتبارها المحول التاريخي للمجتمع القديم، وباني المجتمع الجديد، والمدافع عن مصالح كل الجماهير الكادحة.

وعلى العموم يتكون النموذج الماركسي الأصلي من نموذج للمجتمع البرجوازي بطبقتيه الرئيسيتين وينطوي على ثلاثة تنبؤات قوية<sup>10</sup>:

1. ينزع المجتمع البرجوازي إلى الإستقطاب في طبقتين، البرجوازية والبروليتاريا، وهذه الأخيرة معرّفة كطبقة من العمال الذين لا يستطيعون العيش إلا إذا وجدوا عملاً، ولا يجدون عملاً إلا إذا أدى جهدهم إلى زيادة رأس المال (فكرة انتاج فائض القيمة من طرف العمال).

2. ينزع التراكم الرأسمالي إلى إفقار وتقوية البروليتاريا في الوقت نفسه، وذلك في إطار المجتمع البرجوازي. ويرتبط تعزز دور البروليتاريا بموقعها كمنتج للثروة الاجتماعية. أما إفقارها فيرتبط بدورها كقوة عمل مسّعة بهذا القدر أو ذاك، خاضعة لكل تقلبات المنافسة<sup>11</sup>.

3. تنزع قوانين السوق والمنافسة، اجتماعياً وسياسياً، إلى دمج النزوعين السابقين في عملية تفقد النظام البرجوازي مشروعيته، مما يستحث أن يخلفه نظام عالمي غير تنافسي وغير استغلالي.

ولكي يستطيع المرء تقويم مدى توافق تلك التنبؤات مع التاريخ الفعلي اللاحق للرأسمالية، من المفيد تجزئة السنوات التي تلت ظهور "البيان الشيوعي" وحتى يومنا هذا إلى ثلاث حُقب كبرى.

- الحقبة الأولى (1848 – 1896) - حقبة التوسع والصراع. إن اتجاهات وأحداث هذه الفترة تتوافق مع توقعات "البيان". فانتشار ممارسات التجارة الحرة وثورة المواصلات، التي انطلقت

<sup>10</sup> لمزيد من التفاصيل قارن: جيوفاني أريغي، الاضطراب الكبير (بيروت: دار الفارابي، 1991).

<sup>11</sup> في الرأسمالية تتحول قوة العمل إلى سلعة مثل بقية السلع ولكنها تمتاز عن غيرها من السلع بقدرتها على خلق قيمة أكبر من قيمتها (انتاج فائض القيمة).

طوال العشرين عاماً أو ربع القرن التي تلت 1848، جعلت رأسمالية السوق حقيقة عالمية أكثر من أي وقت مضى. فقد اشتدت المنافسة على السوق العالمية وتوسعت الصناعة بسرعة طوال معظم نصف القرن اللاحق. كما غدت بلترة الفئات الوسطى أكثر اتساعاً. وبدا استقطاب المجتمع إلى طبقتين متميزتين متضادتين نزوعاً لا خلاف حوله، وإن تفاوت نطاقه بين بلد وآخر. ويعود هذا الاستقطاب من جهة إلى **تقلص** الفئات الوسطى، ومن جهة أخرى إلى **اتساع الفجوة** بين دخول البروليتاريين وثروات البرجوازيين، وأخيراً إلى التمرکز السكني الأكبر للبروليتاريا وانعزالها في أحياء خاصة<sup>12</sup>.

وفي الوقت نفسه كانت ثمة قرائن على نزوع التراكم الرأسمالي إلى إفقار وتقوية البروليتاريا كما أشرنا سابقاً. فالتمركز الأوسع للبروليتاريا، ارتباطاً بانتشار التصنيع، سهّل إلى حد كبير تنظيمها في إتحادات، والموقع الاستراتيجي للعمال الأجراء، في عمليات الإنتاج الجديدة، منح تلك المنظمات سلطة هائلة لا في مواجهة أرباب العمل الرأسمالي فحسب، بل في مواجهة الحكومات أيضاً. وكما تنبأ "البيان"، عملت نزعتا الإفقار والتقوية المتضادتان معاً على زعزعة إذعان البروليتاريا لحكم البرجوازية.

كانت "كومونة باريس" عام 1871 أكثر مظاهر هذا التحرر السياسي للبروليتاريا إثارة (ودرامية أيضاً). ففي كومونة باريس احتفظت البروليتاريا لأول مرة بالسلطة السياسية "طوال شهرين كاملين" (كما كتب ماركس وإنجلز بحماس في مقدمة الطبعة الألمانية للبيان الشيوعي عام 1872). وبالرغم من الهزيمة، احتفى ماركس بكومونة باريس واعتبرها نموذجاً للتنظيم المستقبلي للبروليتاريا كطبقة حاكمة.

خلال هذه الحقبة حصل تغير في التوازن الدولي، وهو توازن كان قوامه أربع دول: أربع أمم رأسمالية مركزية متقدمة: انكلترا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة، وواحدة نصف متخلفة، إيطاليا، وامبراطوريتان متعددتا الجنسية متخلفتان لكن مندمجتان في النظام الرأسمالي الجديد: روسيا والنمسا- المجر. من هذا التوازن غير المستقر وتصادم الامبرياليات للنفاذ الى بلدان "المحيط" ومن النيو – حمائية الإمبراطورية والتكتلات الناجمة عنها، اندلع النزاع الدولي الاول (الحرب العالمية الاولى 1914 – 1918) مفتحة مرحلة جديدة للرأسمالية<sup>13</sup>.

### - الحقبة الثانية (1896 إلى 1948) – حقبة الازمات.

حينما بحث ماركس مسألة الأزمات في القرن التاسع عشر كانت الفترة بين كل أزمتين اقتصاديتين متتاليتين تمتد، في العادة، من تسعة أعوام الى احد عشر عاماً. إلا ان (ماركس) قد أشار في ذلك الوقت الى ان قوانين الرأسمالية تعطي أساساً لاعتبار هذا العدد افتراضياً. وفيما بعد تحققت رؤية ماركس، ففي الفترة من 1920 الى 1939، على سبيل المثال، قامت ثلاث أزمت:

#### 1. أزمة 1920 – 1921

2. أزمة 1929 – 1933. وهي أهم هذه الأزمات وتمثلت نتائجها الاقتصادية والاجتماعية في ما يلي:

- انطلقت عملية تحرير شعوب أفريقيا وآسيا.

- أدت الأزمة الى بداية انتشار الفاشية.

- بدأت بلدان أمريكا اللاتينية في تحقيق ما يسمى بنموذج التصنيع البديل للاستيراد عوض النموذج الاستعماري الذي كان سائداً وهو تصدير المواد الأولية.

- فتحت الأزمة إمكانية تكوين تشكيلات اجتماعية تهدف الى تحقيق الاشتراكية.

- برهنت الأزمة عن عجز البلدان الرأسمالية على عدم التدخل الفعال للدولة في العملية الاقتصادية.

<sup>12</sup> قارن: جيوفاني أريغي، المصدر السابق.

<sup>13</sup> لمزيد من التفاصيل قارن: د. صالح ياسر حسن، الاقتصاد السياسي للازمات الاقتصادية في النسق الرأسمالي العالمي – محاولة في فهم الجذور (بغداد: دار الرواد المزدهرة، 2011)، ص 80-81.

- أضعفت الأزمة النظام الإنتاجي للبلدان الرأسمالية، كما أضعفت أيضا منطق السوق والإيديولوجية الليبرالية.

3. أزمة 1937 – 1939. كانت قلة امتداد الدورة في تلك الفترة ترتبط أوثق الارتباط بضعف مرحلتي الانتعاش والنهوض، ويقصر مدتهما وشدتّهما. فمراحل النهوض لم تكن شاملة، ولم تشمل جميع البلدان الرأسمالية وجميع قطاعاتها الاقتصادية. وقد وصف (أنجلس) بوضوح المسيرة التي تحكم تطور الاقتصاد الرأسمالي حسب مراحل الدورة، وهي المسيرة التي تقود هذا الاقتصاد، بقوة لا تقاوم، من أزمة الى أزمة. وأوضح ان الجمود يخيم سنين طويلة وتُدمر القوى المنتجة وتُبدد كميات كبيرة من الإنتاج، بسبب الكساد وانخفاض الأسعار وعدم القدرة على التصريف. ثم تتسارع حركة الإنتاج والتبادل شيئا فشيئا، وتتحوّل الخطى الى خيب وينتقل خيب الصناعة الى ركض يتحوّل الى جموح، الى قفزات تشمل الصناعة، والتجارة، والتسليف والمضاربة، وبعد قفزات بانسة تنحدر الحركة الى هاوية لا مفر لها. وهكذا تتكرر الأمور<sup>14</sup>.

- الحقبة الثالثة (وتمتد من 1948 حتى يومنا). من المعروف ان الحرب العالمية الثانية (1939 – 1945) دشنت حقبة جديدة في النظام العالمي. فقد استند نهوض ما بعد الحرب الى تكامل مشاريع مجتمعية ثلاثة<sup>15</sup>:

1. مشروع دولة الرفاه الاشتراكية الديمقراطية في الغرب المستند الى فعالية النظم الانتاجية المحلية المترابطة.
2. " مشروع باندونغ " للبناء الوطني البرجوازي في "اطراف" النظام "أيديولوجيا التنمية".
3. واخيرا المشروع السوفيتي، الذي استقل نسبيا عن النظام العالمي المسيطر.

وواقع ان الهزيمة المزوجة للفاشية وللإستعمار القديم قد خلقت ظرفا سمح للطبقات الشعبية وضحايا التوسع الرأسمالي ان يفرضوا اشكالا من التضبيب والتراكم الرأسمالي – أرغم الرأسمال نفسه على التكيّف معها – كانت في اساس ذلك النهوض.

كما ان الحرب العالمية الثانية تمخضت عن نتائج بالغة الأهمية، وساهمت في تشكيل الملامح الاساسية لـ "عالم ما بعد الحرب"، وهي<sup>16</sup>:

1. اندحار محور برلين وطوكيو.
2. اضعاف قوة بريطانيا وفرنسا.
3. ظهور المعسكر الاشتراكي وتعاضم قوته.
4. ارتفاع مستوى تنظيم الطبقة العاملة في النضال من اجل مصالحها في البلدان الرأسمالية المتطورة.
5. بروز الولايات المتحدة الامريكية كأقوى قوة عسكرية واقتصادية وتمكنها من فرض هيمنتها على مجمل المنظومة.
6. انفصال الصين عن المنظومة بعد انتصار الثورة الاشتراكية فيها.
7. اشتعال ونضوج حركات التحرر الوطني في المستعمرات والبلدان التابعة كحركة تاريخية حتمية، وحصول العديد من دول اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية على استقلالها السياسي، وبالتالي انهيار النظام الكولونيالي.

<sup>14</sup> قارن: انجلز، أنتي دوهرنك، ص 259 – 260.

<sup>15</sup> انظر: سمير أمين، ما بعد الرأسمالية المتهاكّة، دار الفارابي، بيروت 2003، ص 39.

<sup>16</sup> لمزيد من التفاصيل قارن: د.رمزي زكي، الاقتصاد العربي تحت الحصار، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 1989، ص 69 ولاحقا؛ كذلك: د.صالح ياسر حسن، الاقتصاد السياسي للازمات الاقتصادية في النسق الرأسمالي العالمي...، مصدر سبق ذكره، ص 109 ولاحقا.

في ضوء هذه النتائج والمعطيات التاريخية، دخلت منظومة الاقتصاد الرأسمالي العالمي مرحلة ما بعد الحرب العالمية لتنتقل الى سياق تاريخي جديد، تشكلت فيه ملامح عصر جديد، هو عصر سوف يتميز بقدرة عالية على النمو والاستقرار لمدة ربع قرن كامل في ظل السيطرة المركزية للولايات المتحدة واحتلالها مركز النواة لها. وقد ساد الظن بين عدد من الاقتصاديين، ان هذا الازدهار الواضح لعالم ما بعد الحرب العالمية الثانية (1945 – 1970) يرجع اساسا الى التدخل الحكومي في النشاط الاقتصادي على الطريقة الكينزية. صحيح ان الانتعاش الذي حققته الرأسمالية في عالم ما بعد الحرب قد تعاصر مع التطبيق الواسع للكينزية، إلا انه من غير الصحيح ان نعزو انتعاش الرأسمالية في تلك الفترة الى السياسات الكينزية فحسب. فجاناب سياسة التدخل الحكومي، التي لا ينكر دورها في هذا الانتعاش لتلك الفترة، هناك عوامل موضوعية اخرى، لا تقل اهمية، باشرت تأثيرا قويا في بروز هذا الانتعاش تمثلت في ما يلي<sup>17</sup>:

**1. بقاء نمط تقسيم العمل الدولي بين بلدان "المركز" و "المحيط" كما هو، وهو النمط الذي فرض على مجموعة البلدان الاخيرة ان تخصص في انتاج وتصدير المواد الخام والأولية وأن تستورد في مقابل ذلك احتياجاتها من السلع الاستهلاكية والانتاجية المصنعة، والمواد الغذائية....** وبهذا تكفل نمط تقسيم العمل الدولي هذا الذي ارسى دعائمه ابان المرحلة الكولونيالية، بإعادة انتاج علاقات السيطرة والهيمنة على بلدان "المحيط". وهو امر كانت له أهمية بالغة في تعضيد نمو الرأسمالية العالمية لعالم ما بعد الحرب.

**2. نظام النقد الدولي الذي ارسيت دعائمه في اتفاقية بريتون وودز، وهو النظام الذي تمكنت من خلاله الولايات المتحدة ان تجعل الدولار الأمريكي العملة الدولية ومصدر السيولة العالمية.** ... وقد لعب نظام النقد الدولي هذا، وبالذات ابان سنوات تشغيله في الاربعينات والخمسينات وحتى النصف الاول من الستينات، دورا مهما في خدمة توسع الرأسمالية الأمريكية خارج حدودها (في دول غرب اوريا وبلدان "المحيط").

**3. استمرت وتنامت ظاهرة التبادل اللامتكافئ فيما بين بلدان "المركز" و بلدان "المحيط".** وهي ظاهرة كشفت التحليل الحديث عن كنهها حينما ارجعها بعض المؤلفين الى التفاوت في مستويات الاجور فيما بين هاتين المجموعتين من البلدان<sup>18</sup>. وقد عضدت هذه الظاهرة من حركة تراكم راس المال في البلدان الرأسمالية الصناعية وشكلت في الوقت نفسه نفيا جزئيا لبعض تناقضات النظام الرأسمالي على صعيده المحلي. وفي المقابل، ادت تلك الظاهرة الى الحد من امكانات التراكم والتنمية في بلدان "المحيط".

**4. الحصول على النفط بأسعار بخسة للغاية يعد احد العوامل الجوهرية المسؤولة الى حد بعيد عن هذا النمو المزدهر لرأسمالية ما بعد الحرب العالمية الثانية.**

**5. تدخل الحكومة بشكل متزايد في النشاط الاقتصادي في ضوء ما املته الوصفة الكينزية من توجهات ومن سياسات لمجابهة حدة الازمات الدورية.** ومهما يكن من امر الخلاف حول تقويم النظرية العامة لكينز، الا انه من الثابت انها كانت تعبر عن مصلحة رأسمالية البلد الاحتكاري وتستجيب لمتطلبات المرحلة. كما ان تطبيقها في كل بلد من بلدان "المركز" قد كفل للاحتكارات الرأسمالية قدرا لا بأس به من ضمان الاستمرار والازدهار خلال ربع قرن كامل عن طريق ما وفرته من طلب حكومي هائل.

**6. كان لعمليات اعادة بناء الطاقات الانتاجية التي دمرتها قنابل الحرب، وما تولد عنها من جرات استثمارية ودخول ضخمة وطلب كلي، اثر بالغ في دفع عجلات النمو الاقتصادي في**

<sup>17</sup> لمزيد من التفاصيل قارن: د. فؤاد مرسي، مشكلات الاقتصاد الدولي المعاصر، منشأة المعارف بالاسكندرية، 1980؛ كذلك: د. رمزي زكي، الاقتصاد العربي تحت الحصار، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 1989؛ كذلك: د. صالح ياسر حسن، موضوعات حول الاتجاهات والآليات الجديدة في القسمة الدولية للرأسمالية للعمل، "دراسات عربية"، العدد 4/شباط 1985؛ كذلك: د. صالح ياسر حسن، الاقتصاد السياسي للازمات الاقتصادية في النسق الرأسمالي العالمي...، مصدر سبق ذكره.  
<sup>18</sup> لمزيد من التفاصيل انظر: صالح ياسر حسن، العلاقات الاقتصادية الدولية. الابستولوجيا - الانطولوجيا - الاكسيولوجيا، مطبعة دار الرواد المزدهرة، بغداد، 2006.



بلدان غرب اوربا واليابان لفترة ما بعد الحرب. وكان مشروع مارشال (1948 – 1952)<sup>19</sup> الذي وفرت بمقتضاه الولايات المتحدة قروضا ومعونات لبلدان غرب اوربا، تتراوح ما بين 13 الى 15 مليار دولار، بداية الدفعة القوية، التي كفلت حل مشكلات التمويل والعجز الخارجي للبلدان التي استفادت من هذا المشروع.

7. **التعميم على أوروبا الغربية واليابان** لنمط من التراكم المكثف للرأس مال يشكل تطورا للإنتاجية. هذا التطوير المرتبط بإقامة سيرورات للإنتاج ترتكز على التaylorية<sup>20</sup>. وبموازاة ذلك شهدت السوق الداخلية في هذه البلدان توسعا وعمقا في إطار السمات الكينزية لدولة الرعاية State Providence.

8. **وكان للتقدم العلمي والتقاني الذي ظهر خلال هذه الفترة** (تحت مصطلح الثورة العلمية – التقنية) وما تولد عنه من مخترعات ابتكارية تأثير مهم في تطوير قوى الإنتاج وزيادة مستوى الانتاجية للأصول الثابتة ولعنصر العمل.

9. **تزايد الإنفاق العام العسكري**، فقد دخلت حكومات معظم بلدان "المركز" في مجال التسليح والانتاج الحربي بنقل كبير. وهو الامر الذي هيا فرصا واسعة لاستثمار رؤوس الاموال الفائضة وشراء الحكومة لجانب مهم من منتجات الصناعة الثقيلة.

10. **استطاعت القوى الاستعمارية أن تفكك إمبراطورياتها الاستعمارية مع الحفاظ، بالنسبة للأغلبية الساحقة من الدول المستقلة، على أنظمة تؤيد استمرار العلاقات القديمة بدون تغيير جوهري.** تلك العلاقات التي تسمح بنهب ثروات هذه الدول، مع اختيار بعض هذه الدول لإستراتيجية للتصنيع بفضل تعويض الواردات تمثل، في الحقيقة، مستوى متقدما من اندماج هذه الدول في الاقتصاد الرأسمالي العالمي.

إن هذا النمط من التراكم الرأسمالي هو الذي اخذ يستنفذ طاقاته في بداية السبعينات. وهذا يستدعي التوقف عند **العوامل المضادة** التي قادت الى الأزمة، والتي يمكن تناولها على صعيدين: الصعيد العالمي والصعيد المحلي.

## العوامل الكامنة المضادة على الصعيد العالمي

ومهما يكن من امر، فان سنوات الازدهار التي شهدتها منظومة الاقتصاد الرأسمالي العالمي لم يكن من الممكن ان تستمر بلا نهاية او توقف. ذلك انه في مقابل العوامل السابقة التي عضدت من هذا الازدهار، وعلى الصعيدين العالمي والمحلي، كانت المنظومة – في المقابل – قد انطوت على **ميول كامنة مضادة لهذه النمو المستقر**، التي ظلت تتفاعل ببطء وتؤدة، لكن بشكل فاعل ومؤثر، الى ان بلغت نضجها، فوضعت دول المنظومة بكاملها فوق فوهة بركان، لتعجل في

<sup>19</sup> لمزيد من التفاصيل انظر: صالح ياسر حسن، **العلاقات الاقتصادية الدولية...**، مصدر سابق.

<sup>19</sup> " مشروع مارشال " هو مشروع اخضاع بلدان اوربا الغربية سياسيا، واقتصاديا، وعسكريا، للاحتكارات الامريكية، تحت اسم " المساعدة الاقتصادية لانعاش أوربا "، من نيسان 1948 وحتى اواسط 1952، وكان ينشد اقامة السيطرة الامريكية في اوربا والعالم بأسره. كان (مشروع مارشال) مشروعا لتصدير السلع والرأس مال الاقراضي من الولايات المتحدة الامريكية. كما كان معدا للاستيلاء على اسواق جديدة للتصدير، وعلى مصادر للمواد الأولية، ومجالات لتوظيف الرأس مال في بلدان اوربا الغربية ومستعمراتها. فقد فتحت الولايات المتحدة لبلدان اوربا الغربية اعتمادات شريطة استعمالها لشراء السلع الامريكية، وخاصة الاستهلاكية. اما الاموال المعدة للتوظيف حسب " مشروع مارشال " فقد جمعتها حكومة الولايات المتحدة من الضرائب المجبة من السكان. وكان المجموع العام لـ " المساعدة " بموجب " مشروع مارشال " بحدود 15 مليار دولار تقريبا. وقد قدم هذا المبلغ تحت ثلاثة اشكال :

- اعانات لا ترد؛

- قروض؛

- مساعدات مشروطة.

وفتحت في بلدان اوربا الغربية " حسابات متعادلة " قيدت فيها، بالنقد المحلي، حصيلة بيع السلع الامريكية في هذه البلدان، وهي التي قدمت اليها على شكل " هبات ". ولم يكن بالإمكان انفاق الاموال المسجلة في " الحسابات المتعادلة " إلا بإشراف الولايات المتحدة، وكانت تستغل، بشكل واسع، لتطوير الانتاج الحربي، والبناء العسكري، والاستراتيجي في اوربا الغربية ". انظر: د. صالح ياسر حسن، **العلاقات الاقتصادية الدولية...**، مصدر سبق ذكره، ص 717-718.

<sup>20</sup> **التaylorية**، ومشهورة باسم مهندسها الامريكي (ف.ه.تايلر) (1856 – 1915)، طريقة رأسمالية لتنظيم العمل، وإدارة الإنتاج، تؤمن تشديد وتأثر العمل، ونمو انتاجيته. انها طريقة " علمية " لاستنزاف عرق الشغيلة. كان هدف هذه الطريقة، كما يقول صاحبها، تأمين " الربح الاقصى لرب العمل " عن طريق تكثيف يوم العمل الى الحد الاقصى.

اشتعال الازمة عند بداية السبعينات. ونظرا لما تتطوي على المنظومة الراسمالية العالمية من صراع وتنافس وعلاقات نمو لا متكافئ وتطور متفاوت على مستوى المنظومة الراسمالية العالمية، فان العوامل الكامنة المضادة لاستقرار هذا الاطار العالمي، والتي عجلت بدخول المنظومة ازمتها الراهنة، سرعان ما تفاقمت عند بداية السبعينات. وهذا رصد مختصر لهذه العوامل<sup>21</sup>.

**1. انهيار نظام بريتون وودز<sup>22</sup> في مطلع السبعينات (أب 1971)** حينما اعلن الرئيس الامريكي انذاك (ريتشارد نيكسون)، وبقرار منفرد ودون الرجوع الى صندوق النقد الدولي، وقف قابلية تحويل الدولار الى ذهب. ويمكن القول ان نظام النقد الدولي الذي ساد منذ ذلك الوقت يمكن وصفه بأنه " نظام اللانظام " ، فقد تم تعويم اقوى العملات، واشتدت المضاربات على الذهب، واشتعلت حركات رؤوس الاموال الساخنة بقوة، واضطربت المعاملات النقدية الدولية. وبذلك فقدت المنظومة أهم آلية عالمية كانت مسؤولة عن انجاح اداء المنظومة على النطاق العالمي، وهي ثبات اسعار الصرف واستقرار أوضاع المدفوعات الدولية. ومن ذلك الوقت شهدت المنظومة صراعا ضاريا بين الدولار من ناحية، وعملات البلدان الاوربية واليابان من ناحية اخرى. وهو صراع ظل يعكس علاقات القوى غير المتكافئة وأزمة هيمنة الدولار الامريكي على الآلية النقدية للمنظومة. والحقيقة ان هذه الصراعات والتناقضات، التي ادت الى تفكك وتحلل نظام بريتون وودز، كانت نتاجا لقانون التطور اللامتساوي الذي يحكم نمو الراسمالية على الصعيد العالمي. وبذلك ضاق اطار نظام النقد الدولي الذي عكس علاقات القوى لعالم مابعد الحرب من استيعاب التغيرات التي حدثت على خريطة الاقتصاد الراسمالي العالمي. وكان من الطبيعي، والحال هذه، ان تنفجر عدة ازمت نقدية (ازمة الاسترليني وازمة الفرنك الفرنسي، وازمة المارك الالمانى، وازمة الدولار الامريكي) وتتفاعل فيما بينها لتفرض في النهاية اطارا جديدا للعلاقات النقدية الدولية ليعكس حقيقة الاوضاع المتغيرة في علاقات القوى على الصعيد العالمي. وهو اطار سيرسم، منذ هذه اللحظة، صفحة جديدة في نظام النقد الدولي ومعالم الفوضى فيه<sup>23</sup>.

**2. تعاضم ظاهرة التدويل داخل منظومة الاقتصاد الراسمالي العالمي<sup>24</sup>**، وهي الظاهرة التي قادتها وعمقتها مجموعة من اقوى الشركات متعددة الجنسية، وجعلت من كل بلدان المنظومة، سواء في بلدان "المركز" او بلدان "المحيط"، مسرحا مفتوحا لنشاطها الاخطبوطي. وتجدر الاشارة الى أنه ونتيجة لتعاضم نشاط هذه الشركات، فقد تعمقت درجة تقسيم العمل الدولي غير المتكافئ، بين بلدان "المركز" و بلدان "المحيط"، وأدت ظاهرة التدويل الى زيادة درجة الترابط والتشابك بين مختلف اجزاء المنظومة. ولهذا لم يعد مستغربا حينما يحدث التدهور الدوري (في الدخل والنتاج والتوظيف) في بلد ما، ان تتأثر لأصدائه بقوة، وفي الوقت نفسه بلد أو بلدان أخرى من خلال القنوات المتسعة التي مدتها الاحتكارات الدولية متعددة الجنسية على جبهة العالم الراسمالي أجمع.

**3. اندلاع " حرب فيتنام " في بداية الستينات** وما تركته من تداعيات على الاقتصاد الامريكي. فقد كان لهذه الحرب تأثير خطير على الاقتصاد الامريكي، حيث بادرت الولايات المتحدة بإتباع سياسة اقتصاد الحرب، والتي كانت في الواقع سياسة تضخمية.

**4. ومن العوامل المهمة التي عجلت في انفجار ازمة منظومة الاقتصاد الراسمالي العالمي اتساع**

<sup>21</sup> لمزيد من التفاصيل: فواد مرسي، مشكلات الاقتصاد الدولي المعاصر، منشأة المعارف بالإسكندرية، 1980، ص 76 ولاحقا؛ كذلك: د.صالح ياسر حسن، الاقتصاد السياسي للامتداد الاقتصادية في النسق الراسمالي العالمي...، مصدر سبق ذكره، ص 114 ولاحقا.

<sup>22</sup> من المعلوم ان نظام النقد الدولي الذي ارسيت دعائمه في اتفاقية بريتون وودز عام 1944، كان قد قام في اعقاب الحرب العالمية الثانية على اساس المشروع الامريكي الذي قدمه (ريتشارد هوايت) مندوب الولايات المتحدة، بعد ان قُتل مشروع اللورد كينز في ان يحصل على التأييد الكافي. وقد تمكنت الولايات المتحدة من لعب دور القائد في صياغة نظام النقد الدولي الجديد وتحديد قواعد اللعبة فيه طبقا لمصالحها الخاصة، نظرا لما كانت عليه حينئذ من قوة اقتصادية وسياسية وعسكرية.

<sup>23</sup> قارن: رمزي زكي، التاريخ النقدي للتخلف، سلسلة عالم المعرفة (118)، الكويت، 1987، ص 216.

<sup>24</sup> لمزيد من التفاصيل قارن: د.صالح ياسر حسن، ملاحظات منهجية ونظرية حول تدويل الحياة الاقتصادية في العالم المعاصر، "دراسات عربية"، العدد 6/ السنة 22/ نيسان-أبريل/ 1986، ص 44 ولاحقا.

الفروق بين بلدان "المركز" وبلدان "المحيط"، نتيجة لعلاقات الاستغلال والتبادل اللامتكافئ بينهما خلال فترة عالم ما بعد الحرب. فقد انطوت تلك العلاقات على نزف مستمر للفائض الاقتصادي الذي كان يتحقق في بلدان "المحيط"، ومن ثم وُضعت تطلعات وجهود التنمية ورفع مستوى المعيشة في هذه البلدان في حصار شديد.

5. **انتهاء عصر الرخص الشديد لمواد الطاقة**، وظهور ما سمي "ازمة الطاقة"، حينما تمكنت مجموعة البلدان الاعضاء في منظمة الاوبك من زيادة سعر هذه المادة الحيوية من خلال "صدمتين" سعريتين مؤثرتين، الاولى في عام 1973/1974 والثانية في عام 1979/1980. وكان من جراء ذلك، ان حدث لأول مرة في علاقة بلدان المركز ببلدان المحيط تصحيح عادل لأسعار التبادل الدولي، وتحويل جزء هام من الدخل القومي العالمي من بلدان المركز الى بلدان المحيط.

### العوامل الكامنة المضادة على الصعيد المحلي

مقابل ذلك كانت هناك مجموعة من القوى المضادة على صعيد محلي أثمرت في تفاعلها البطيء والمؤكد افراز الازمة. وهذه العوامل يمكن ايجازها في

- الافراط في الاستثمار.
- نمو العجز الداخلي.
- تحول البطالة الى مشكلة هيكلية.
- زحف التضخم. ان الاسباب الحقيقية لزحف التضخم بشكل متواصل على بلدان المنظومة (وبالذات مراكزها الصناعية) انما يعود الى أربعة أسباب جوهرية، وتتعلق بطريقة اداء المنظومة وخصائصها في مرحلة السبعينات، وهي<sup>25</sup>:

- الاثر التضخمي لنظام بريتون وودز.
- قوة الاحتكارات.
- العجز المتواصل في ميزانية الدولة.
- تعاضم الانفاق على التسليح.

عندما دخلت الرأسمالية مشارف السبعينات من القرن العشرين في أزمة هيكلية حادة، سرعان ما تعرضت "الثورة" الكينزية (التي شكل التدخل الحكومي في النشاط الاقتصادي جوهرها) لثورة مضادة، سواء على صعيد الفكر أو صعيد السياسات الاقتصادية. وكان مناخ هذه الثورة المضادة مؤاتيا حينما تردت معدلات الربح في قطاعات الانتاج المادي بشكل مستمر، وهو الامر الذي دفع برجال الاعمال الى خفض برامج الانتاج وإيقاف او تقليل خطط الاستثمار مما كان له اثر واضح في انخفاض الطلب على العمالة وزيادة عدد العاطلين. هذا في الوقت الذي كان فيه التضخم قد جنح الى آفاق عليا. ورافق ذلك بروز أزمة واضحة لاستيعاب الفائض الاقتصادي المتزايد، فاتجهت اقسام واسعة منه للاستثمار في مجال المضاربات والاقراض والتوسع في قطاع الخدمات.

وعلى صعيد الفكر الاقتصادي، تعرضت الكينزية لحصار نظري طاحن من خلال هجمات المدرسة النيوكلاسيكية التي قاد لوائها ميلتون فريدمان (مدرسة شيكاغو) وانصار مدرسة اقتصاديات العرض (لافر وجماعته). فقد نسبت هاتان المدرستان للتدخل الحكومي كافة الازمات والمشكلات التي تعاني منها الرأسمالية (البطالة، الركود، انخفاض الانتاجية، التضخم، عجز الموازنة .. الخ).

<sup>25</sup> قارن: د.صالح ياسر حسن، الاقتصاد السياسي للازمات الاقتصادية في النسق الرأسمالي العالمي...، مصدر سبق ذكره، ص 117 ولاحقا.

وعموماً، فإنه لما كانت الرأسمالية، عبر شتى مراحل تطورها، قد أفرزت تيارات الفكر الاقتصادي ما يناسب مصالحها ويعبر عن وعيها الطبقي، فإن الازمة الهيكلية التي دخلت فيها منذ مشارف عقد السبعينات من القرن العشرين قد أفرزت اشد تيارات الليبرالية تطرفاً. وهذا التيار الليبرالي الجديد المتطرف، قد انقسم في الحقيقة الى فرعين رئيسيين، يصبان معا في منبع واحد، هو المناداة باطلاق الحرية الاقتصادية (بمعناها الهيجي) الى اقصى حد ممكن<sup>26</sup>.

**الفرع الاول** بلور جوهر فكره أساسا في ضرورة تحجيم دور الدولة وتدخلاتها في النشاط الاقتصادي، مناديا في ذلك بان الحرية الاقتصادية هي اساس حياة الفرد والمجتمع، وان الضوابط هي الاستثناء، وانه لا تعارض بين سعي الفرد للبحث عن مصلحته وتحقيق مصلحة المجتمع. كما ان الرأسمالية قادرة من خلال اليات السوق ان تحقق التوازن العام، وان ما حدث من خلل في هذا التوازن عبر تاريخ الرأسمالية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين انما يعود الى عدم احترام قوانين السوق وتدخلات الدول ونقابات العمال. وقد اتخذ الهجوم على السياسات الاجتماعية التي تطبقها الدولة في مجال السوق، اتخذ هذا الهجوم اهمية ارتكازية في فكر انصار الليبرالية الجديدة.

**اما الفرع الثاني** الذي ظهر في الليبرالية الجديدة، فهو ذلك التيار الذي اجتهد في تحليلاته للمناداة باعادة توزيع الدخل والثروة لصالح البرجوازية، ساعيا في ذلك الى ما يشبه البحث عن مصادر جديدة للتراكم البدائي للاستعانة بها في مرحلة التوسع الرأسمالي القادمة. وهنا تبلور فكر هذا التيار في قضيتين اساسيتين. الاولى، هي المناداة بخفض الضرائب على الدخل والثروات الكبيرة، والقضية الثانية، هي بيع مؤسسات الدول ونقل ملكيتها الى القطاع الخاص.

ومهما يكن من امر، فان هذه الليبرالية المتطرفة التي تجسدت اجراءاتها في تحجيم دور الدولة في النشاط الاقتصادي وفي خفض معدلات الضرائب على الدخل والثروات المرتفعة وفي بيع شركات القطاع العام الى القطاع الخاص وفي اطلاق العنان لقوى السوق في بيئة يغلب عليها طابع الاحتكار، قد تمخضت بشكل واضح عن اعادة توزيع، شبه جذرية، في الثروة القومية والدخل القومي بالبلاد الرأسمالية الصناعية لصالح البرجوازية وضد كاسبي الاجور والمرتبات من العمال والموظفين.

وإذا كانت الليبرالية وآليات السوق ومعاداة التدخل الحكومي هي الشعارات التي رفعتها الرأسمالية على صعيدها المحلي لمواجهة مأزقها التاريخي الذي عاشته بعد ازمة السبعينات<sup>27</sup>، وتمكنت بها، ومن خلالها، من اعادة توزيع الدخل والثروة لصالح البرجوازية، مع ما سببه ذلك من اختفاء ما يسمى " بدولة الرفاه " وما سببه ذلك من مشكلات وتناقضات حادة على الصعيد الداخلي، فان الرأسمالية المعاصرة، على صعيدها العالمي، وهي تخطط لمرحلة توسعها القادم كانت اكثر وحشية في ليبراليتها وهي تعيد احتواء بلدان "العالم الثالث" واختراق الدول التي كانت اشتراكية. فتحت ضغوط اعادة جدولة الديون واوهام " التصحيح الاقتصادي " واستعادة التوازنات الاقتصادية الداخلية والخارجية، تم اخضاع دول هذا العالم لنظام اشبه بالادارة المركزية الخارجية لاقتصاداتها عبر اتفاقات صندوق النقد الدولي وشراء اصولها الانتاجية (المصانع والشركات والبنوك... الى اخره) ويعود الاجانب مرة اخرى للتحكم في مقدراتها.

<sup>26</sup> قارن: رمزي زكي، أزمة الرأسمالية العالمية وعلاقتها بأزمة المديونية الخارجية للدول المختلفة، (في: رمزي زكي، بحوث في ديون مصر الخارجية (الفاخرة: مكتبة مدبولي، 1985)، ص 23 ولاحقا؛ كذلك:

Radcliffe, B. (2008) *Monetarism: Printing Money To Curb Inflation*. Available at

<http://www.investopedia.com/articles/economics/08/monetarism.asp>

Mavroudeas, D. S. & Papadatos. D. (2005) *Neoliberalism and the Washington Consensus*. Available at

<http://www.econ.uoa.gr/UA/files/1435329852..pdf>

<sup>27</sup> لمزيد من التفاصيل حول ازمة السبعينات من القرن العشرين قارن: د.صالح ياسر، الاقتصاد السياسي للزمات الاقتصادية في النسق الرأسمالي العالمي - محاولة في فهم الجذور (بغداد: دار الرواد المزدهرة، 2011)، ص 174 ولاحقا.

وعبر هذه الليبرالية المتوحشة، وعبر اوهام التحول الى نظام اقتصاد السوق، تم تفكيك اقتصادات تلك البلاد... تفكيكها اقتصاديا وقوميا وسياسيا، ليسهل احتوائها وعودتها الى حظيرة النظام الراسمالي، وليسهل تصدير فائض الانتاج السلعي وفائض رؤوس الاموال إليها من اجل استنزاف الارباح منها<sup>28</sup>.

وتجدر الاشارة الى انه في ضوء التلطف على الاندماج في الاقتصاد الراسمالي العالمي والتحول سريعا نحو الرأسمالية، فقد تسارع زحف الاستثمارات الاجنبية الخاصة الى دول شرق اوربا والاتحاد السوفياتي السابق. وتشير الاحصائيات الى انه فيما بين بداية عام 1991 ويناير 1992 تضاعفت قيمة هذه الاستثمارات ووصلت الى ما يزيد عن 43 مليار دولار، وبلغت فيها قيمة المشروعات الاجنبية المملوكة بالكامل لراس المال الاجنبي 9.4 مليار دولار. 110

وباختصار شديد، انتقلت الراسمالية في حقبة السبعينات الى عالم جديد، وبينة جديدة، افقدت فيها - سواء على صعيدها المحلي او صعيدها العالمي، تلك الآليات المؤاتية المتجانسة التي كانت تمل بها في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، الامر الذي جعل المنظومة الرأسمالية تعيش منذ تلك الحقبة وحتى الآن ما يمكن تسميته بعصر الازمة المستمرة. وبمعنى آخر، فانه ابتداء من سنة 1970 وضعت ازمة الرأسمالية حدا نهائيا للأوهام الكينزية وأوهام ايدولوجيا التنمية. وفي هذا الفراغ الذي خلفته الازمة المزروجة انطلق الهجوم المحافظ لليبرالية الجديدة التي اختزلت نفسها الى مستوى الترويج لعلاج كوني هو " السوق ". مع ذلك فان الاستمرار العنيد في السياسات التي تستلهم هذه العقيدة لا يمكن ان يقود إلا الى الخيبة والى عكس الهدف المرجو منه: لن يقود إلا الى تفكك النظام العالمي والى صدمات جديدة وغير محدودة بين " القوميات المسيطر عليها.

هكذا اذن فان النمو المديد الذي شهدته " الحقبة الكينزية " لم يستمر طويلا. ففي عام 1973 تفجرت الازمة، وخلال عامي 1974-1975 شهد العالم ما يسمى بـ " فورة اسعار البترول " حيث تمت مضاعفة أسعار النفط أربع مرات من طرف منظمة الدول المصدرة للنفط (اوبك). ولا يمكن اعتبار هذه العامل السبب الرئيسي لهذه الازمة بل لا بد من ربطه بجملة من الاسباب الاخرى ومنها تلك المرتبطة بتزايد الأنفاق الحكومي نتيجة حرب فيتنام التي أدت إلى التضخم الاقتصادي في الولايات المتحدة، والحرب في الشرق الأوسط، وفضيحة (ووتر غيت)، وارتفاع أسعار الذهب وانهيار أسعار العقارات في المملكة المتحدة، وإطلاق بنك انكلترا لسياسة قارب النجاة من أجل إنقاذه.

ومن جهة اخرى شهدت بداية فترة الثمانينات من القرن العشرين امان من الركود (1980 - 1982). ففي عام 1979 اقدمت السلطات الجديدة في ايران (الثورة الإيرانية) على اجراءات جديدة في مجال الطاقة، حيث صدرت النفط على فترات غير منتظمة وبكميات ضئيلة، مما أدى الى انخفاض المعروض منه وبالتالي إلى زيادة أسعاره مما أدى إلى حدوث ما سمي في حينه بـ " أزمة الطاقة " في هذا العام وما ارتبط به من تداعيات تملثت من بين ما تملثت به بالركود الاقتصادي والتضخم على الصعيد العالمي.

مع استمرار الازمة وتفاقم الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية داخل المنظومة بدأ يترسخ في وعي الاوساط الراسمالية الاحتكارية حقيقة الفشل الذريع الذي منيت به فلسفة ادارة رأسمالية الدولة الاحتكارية التي وضع اصولها اللورد (جون ماينرد كينز). فمن ناحية، بات من الواضح

<sup>28</sup> لمزيد من التفاصيل راجع: رمزي زكي، محنة الديون وسياسات التحرير في العالم الثالث. دار العالم الثالث، القاهرة 1991؛ كذلك: Shafaeddin, M. (2006), "Trade Liberalization and Economic Reform in Developing Countries: Structural Change or De-industrialization?", in A. Paloni and M. Zanardi (eds), The IMF, World Bank and Policy Reform, London: Routledge.

عجز هذه الفلسفة، عجز جهازها المفاهيمي والتحليلي، في فهم ما جرى في الواقع الراهن للرأسمالية المعاصرة. ومن ناحية ثانية، عجزت أدوات السياسة الاقتصادية المنبثقة عنها عن مواجهة أزمة الكساد التضخمي. في ضوء الوعي لهذه الحقيقة، راح الجناح اليميني في الفكر الاقتصادي الرأسمالي يهاجم بشدة الكينزية ويدعو لنبذها والتخلي عنها، ويدعو لتبني سياسة جديدة، قاد لواءها (ميلتون فريدمان)، وهي السياسة التي عرفت بمصطلح "النقديين" (أو مدرسة شيكاغو)، وهي تيار ينتمي إلى المدرسة النيوكلاسيكية ويحاول العودة بالرأسمالية إلى أصولها الأولى أيام نشأتها إبان القرن الثامن عشر، سواء من حيث رفع شعار الحرية الاقتصادية وآليات السوق الطليقة، أو من حيث تقليص دور الدولة في النشاط الاقتصادي والغاء الدور الذي كانت تلعبه كمضخات للطالب الفعال، أو من حيث التركيز على ما سمي "اقتصادات العرض" لتنشيط آليات النظام. وبالإضافة لذلك فإنه تيار يعطي النقود أهمية قصوى في تفسير وعلاج كافة المشاكل كافة النظام الرأسمالي. وبالفعل أسفرت الانتخابات التي أجريت في السنوات الأخيرة من حقبة السبعينات وبداية الثمانينات في عدد لا بأس به من البلدان الرأسمالية (انكلترا، الولايات المتحدة، ألمانيا الاتحادية، النمسا... الخ) عن سقوط أحزاب الاشتراكية الديمقراطية التي كانت تتبنى السياسة الكينزية وصعود الأحزاب اليمينية والمحافظات التي رسمت برامجها الاقتصادية في ضوء توصيات النقديين.

وفي ضوء التوجهات العامة للنقديين، يمكن القول إن أهم المعالم التي تسلمت بها الأحزاب اليمينية التي وصلت إلى السلطة بعد انتهاء العصر الكينزي في رسم استراتيجيتها لمواجهة أزمة الكساد التضخمي على الصعيد الداخلي، قد تمثلت فيما يلي<sup>29</sup>:

- تبني سياسة انكماشية تعتمد على:
- تقليص برامج الإنفاق الحكومي الموجه لخدمة الفقراء ومحدودي الدخل.
- ضغط الإنفاق العام الموجه للاستثمارات العامة.
- بيع وحدات القطاع العام للقطاع الخاص.
- تخفيض الضرائب على دخول رجال الأعمال وعلى رأس المال لتشجيع القطاع الخاص.
- رفع أسعار الفائدة المدينة والدائنة.
- وضع برنامج ضخم للإنفاق على التسلح.

ومع بداية الثمانينات من القرن العشرين أفاق العالم على أزمة الديون العالمية. فارتباطاً بصعود الريغانية (نسبة إلى الرئيس الأمريكي آنذاك رونالد ريغان) في الولايات المتحدة والتانشرية (نسبة إلى رئيسة وزراء بريطانيا آنذاك مارغريت تانشر) في بريطانيا، التي راحت تروج لأيديولوجيا الليبرالية الجديدة واليد الطليقة للآليات السوقية، شهد العالم الرأسمالي "تحرير" القطاع المالي والمصرفي وحرية حركة رؤوس الأموال، وتوسعت البنوك التجارية العالمية في الإقراض لحكومات دول "العالم الثالث". وقد اقترنت حركة التوسع في الإقراض بتعثر تلك الحكومات وإعلان الدول المدينة عدم قدرتها على الوفاء بأعباء الديون وخدمتها، كما فعلت المكسيك في العام 1982 وتبعها عدد من الدول. وترتب على ذلك جملة من التداعيات:

- بدأت محاولات حكومات الدول الدائنة لاحتواء أزمة الديون العالمية خوفاً من انهيار مؤسساتها المالية وقطاعها البنكي، فتدخلت لمنع مؤسساتها المالية من الإفلاس وانهيار جهازها المصرفي؛
- استمرت الأزمة على مدار عقدين من القرن الماضي، وخضوع الدول المدينة لوصفة المؤسسات الدولية تحت ماعرف ببرامج الإصلاح الاقتصادي والتكيف الهيكلي "Economic Reform and Structural Adjustment Program".

<sup>29</sup> رمزي زكي، " أزمة الرأسمالية العالمية الراهنة وعلاقتها بأزمة الديون الخارجية للدول المتخلفة "، في: رمزي زكي، بحوث في ديون مصر الخارجية (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1985)، ص 23 - 70.

وبالمقابل، شهد عام 1987 عاصفة أزموية جديد طالمت هذه المرة الحقل المالي ايضا. فقد شهد سوق الأسهم في يوم الاثنين الأسود 17 أكتوبر 1987 لحظة درامية، تمثلت بانهيار مؤشر نيكاي بمعدل الثلثين، بينما تلاشى المؤشر الأسترالي، وهبطت أسعار العقارات.

وفي عام 1997 شهد العالم أزمة مالية طالمت بلدان جنوب شرق اسيا بعد ان دشنت بداية هذا العقد أزمة المكسيك المالية وما حملته من تداعيات<sup>30</sup>. فقد شهدت الدول الآسيوية أزمة مالية شديدة بدأت بانهيار عملة تايلاند عقب قرار اتخذه الحكومة بتعويم هذه العملة والتي فشلت بعد ذلك محاولاتها في دعم عملتها في مواجهة موجة المضاربات القوية التي تعرضت لها. وقد ترتب على ذلك جملة من النتائج من بينها:

- أثر ذلك فوراً على دول أخرى مثل الفلبين، اندونيسيا، كوريا الجنوبية وغيرها.
- تفاقت الأزمة حيث تزايد حجم الدين الخارجي لأربعة من أكبر الدول الآسيوية إلى أن بلغ 180% من حجم إجمالي الناتج المحلي لها.
- تدخلت المؤسسات الدولية وبصفة خاصة صندوق النقد الدولي فتم طرح حزمة سياسات لانقاذ الوضع شريطة قيام تلك الدول بتنفيذ برامج معينة للإصلاح الاقتصادي والهيكلي كما حدث في أندونيسيا وكوريا الجنوبية ودول أخرى، فيما عدا ماليزيا التي رفضت هذه الحزمة.

وفي مطلع الألفية الثالثة شهد العالم أزمة ما سمي في حينه بـ " فقاعات شركات الإنترنت"<sup>31</sup>. ففي أواخر القرن العشرين ومطلع الألفية الثالثة، عرف العالم نوعاً جديداً من الأزمات المالية بدأت حين أدرجت أسهم تلك الشركات في سوق الأوراق المالية في الولايات المتحدة والذي يعرف بمؤشر ناسداك "NASDAQ" حيث ارتفعت أسعار أسهم تلك الشركات في البداية بشكل كبير في وقت حقق فيه عدد قليل من تلك الشركات أرباحاً حقيقية مما أدى إلى انفجار تلك الفقاعة في عام 2000.

وفي 15 سبتمبر 2008 تفجرت تناقضات الرأسمالية متمظهرة في الازمة المالية العالمية والتي تحولت الى أزمة اقتصادية عميقة ما زال العالم يأن تحت وطأتها رغم كل ما بذلته قلاع الرأسمالية للتغلب عليها، وما زالت حرائقها ممتدة لحد الآن<sup>32</sup>.

لقد بيّن مسار الفترة التي تلت اندلاع أزمة 2008 ان " التذبذبات " التي شهدتها الأسواق المالية العالمية وانفجارها في أزمة يوم الاثنين الأسود 2008/9/15 تعد إحدى تجليات أزمة كانت ولا تزال تعتمل في حقل الإنتاج وتتمظهر في " تقلبات وتذبذبات " حادة تشبه عملية طحن قوية. وأكد هذا المسار أننا أمام أزمة بنيوية عميقة للنسق الرأسمالي العالمي برزت في البداية في حقل التداول لتشق طريقها كالبرق الى حقل الإنتاج. وبالنظر لأن الأزمة تفجرت فقاعتها في الحقل العقاري ثم في حقل البورصات، المكان الأثير للمضاربات والتي راهنت عليها فلسفة الليبراليين الجدد، فان الآثار التدميرية في هذا الحقل كانت

<sup>30</sup> Anwar Shaikh, 1999. "Explaining the Global Economic Crisis: A Critique of Brenner," Historical Materialism, 5 . Available on:

<http://homepage.newschool.edu/~AShaikh/Explaining%20the%20Global%20Economic%20Crisis.pdf>

<sup>31</sup> تحدث العديد من الأزمات في أسواق المال نتيجة ما يعرف اقتصادياً بظاهرة "الفقاعة" "bubble". حيث تتكون "الفقاعة" عندما يرتفع سعر الأصول بشكل يتجاوز قيمتها العادلة، على نحو ارتفاع غير مبرر. وهو ما يحدث عندما يكون الهدف من شراء الأصل - كالأسهم على سبيل المثال - هو الربح الناتج عن ارتفاع سعره وليس بسبب قدرة هذا الأصل على توليد الدخل. في هذه الحالة يصبح انهيار أسعار الأصل مسألة وقت عندما يكون هناك اتجاه قوياً لبيع ذلك الأصل فيبدأ سعره في الهبوط، ومن ثم تبدأ حالات الذعر في الظهور فتنهار الأسعار ويمتد هذا الأثر نحو أسعار الأسهم الأخرى سواء في نفس القطاع أو القطاعات الأخرى.

<sup>32</sup> لمزيد من التفاصيل قارن: د.صالح ياسر، الاقتصاد السياسي للامزمات الاقتصادية في النسق الرأسمالي العالمي - محاولة في فهم الجنور...، مصدر سابق.

عارمة. وتشير المعطيات الإحصائية الى ان حجم الخسائر خلال فترة قصيرة كان فلكيا وفاق كل التوقعات. فوفقاً لبيانات اللجنة الدولية للتداول في البورصات، التي تتبع الأسواق المالية في أكثر من 53 بلداً متقدماً، فإن 30 تريليون دولار من القيمة السوقية للأسهم المتداولة تبخرت في عام 2008 حتى نهاية تشرين الثاني. وهذه الخسارة تعكس انخفاضات قياسية في مؤشرات البورصات في الولايات المتحدة وأوروبا وطوكيو والعالم النامي.

وتعني الملاحظات أعلاه، وغيرها الكثير، أن الاقتصاد العالمي واجه انكماشاً افضى الى ركود عميق، وهو وضع لم يشهده العالم منذ عقد الثلاثينيات من القرن الماضي. وكما كان دائماً، للأزمات المالية الضخمة في العادة ارتدادات على الاقتصادات التي اندلعت فيها. فالانهيار في البورصات يؤدي حتماً إلى انعكاسات على معدلات التشغيل والإنتاج وبالتالي البطالة، حيث بدأت آثارها المدمرة تبرز بوضوح.

فبحسب الأرقام التي توصلت إليها (منظمة العمل الدولية)، رفعت الأزمة المالية العالمية في 2008 وما تركته من تداعيات على مختلف فروع الاقتصاد عدد العاطلين عن العمل حول العالم بواقع (20) مليون عامل خلال العام 2009. وهو تطور حذر منه رئيس المنظمة، (خوان سومافيا)، موضحاً أن عدد العاطلين من العمل سيرتفع من (190) مليون شخص في العام 2008 إلى (210) ملايين شخص في نهاية العام 2009 بحيث يصل معدل البطالة العالمي الى 6.1 بالمئة. وعلى نحو أكثر واقعية رأت المنظمة أن (30) مليون شخص آخرين قد يخسرون وظائفهم إذا استمرت "التذبذبات المالية" خلال عام 2009 (وهو ما حدث بالفعل) مما رفع معدل البطالة على المستوى العالمي الى 6.5 بالمئة مقارنة مع 5.7 بالمئة في 2007. ويمكن أن يكون الرقم أكبر إذا كان للأزمة تأثير أفسى في الاقتصاد العالمي. ويعني ذلك ان البطالة الدولية والفقر ارتفعا ارتفاعاً "دراماتيكياً" خلال السنوات التالية. وهذا ما تؤكد المعطيات الاحصائية، ففي عام 2015 بلغ عدد العاطلي على الصعيد العالمي 201 مليون شخص، وسيتجاوز عددهم 212 مليون شخص بحلول عام 2019. وبحسب (غاي رايدر) المدير العام لمنظمة العمل الدولية، "فقد أكثر من 61 مليون وظيفة منذ بداية الأزمة العالمية في 2008، وتُظهر توقعاتنا أن البطالة ستواصل ارتفاعها حتى نهاية العقد الحالي"<sup>33</sup>.

والاهم من ذلك كله ثمة قضية تستحق الإشارة إليها هنا والتأكيد عليها. فثمة مقارنة تعيد إلى الأذهان التشبيه المكثف بين أزمة 2008 وتداعياتها وأزمة "الكساد العظيم"، التي ضربت البورصات خلال الفترة 1929-1933، والتي أدت تفاعلاتها، وبينها ارتفاع وتيرة تطبيق الإجراءات الحمائية، إلى انتشار حركات التطرف في أوروبا (الفاشية) وإلى اندلاع الحرب العالمية الثانية. والسؤال الذي ظل يشغل الذهن: ما الذي ستفرزه أزمة 2008 بكل أبعادها العميقة؟ ما هي الردود السياسية التي ستأتي بها الحركات الاجتماعية للنتائج الفوضوية الناجمة عن هذه الأزمة؟ حتى الآن افرزت الأزمة الاخيرة ظهور حركات فاشية وشعبوية جديدة رجعية. ولا بد من الإشارة هنا الى ان أزمة النظام الرأسمالي الحالية، التي تمظهرت في البداية على هيئة أزمة مالية عميقة وتفاقت لتصبح أزمة بنيوية، لا تعني بالضرورة انهيار الرأسمالية أو العودة الى "الكينزية"، إذ أن الانهيار هذا لا يتوقف فقط على أزمته بل يتوقف، وهو المهم، على القوى المقابلة لها، القوى النقيض. وهذا يطرح سجالات لا تقدر هذه المساهمة على الدخول في تفاصيله هنا لان ذلك يحتاج الى معالجة مستقلة. ولكن ما ينبغي التأكيد عليه هو ان العالم لن يخرج من هذه الأزمة الطاحنة بدون دفع مستحقات النمو المصطنع الذي كان قائماً على الاقتصاد الوهمي والمضاربات وليس على الاقتصاد الفعلي. ولكن ما طرحته القوى المهيمنة في العالم الرأسمالي من إجراءات لإدارة الأزمة تبدو كما لو ان تلك القوى تريد ان يتحمل أعباء هذه

<sup>33</sup><http://www.un.org/sustainabledevelopment/ar/2015/01/un-study-predicts-rising-global-unemployment-due-slower-growth-inequality-turbulence/>



الأزمة دافعوا الضرائب وعمال وفقراء العالم، وليس أثريائها المتخمين. ونظراً لأن هذه الإجراءات لن تؤدي إلا إلى إعادة إنتاج الأزمة فإن الحاجة ملحة إذن لطريق آخر. وهنا نخرج من حقل الاقتصاد الصرف لندخل إلى حقل السياسة والفكر حيث معركة الرهانات الكبرى والبدائل المطروحة لتجاوز الأزمة. وفي كل الأحوال، لن يعود العالم إلى ما كان عليه قبل انفجار الأزمة في 2008/9/15، فثمة توازنات جديد تشق طريقها رغم كل الممانعات، فالخاسرون لن يستسلموا بسهولة.

\*\*\*\*\*

بعد الملاحظات السابقة، نعود إلى "البيان" مرة أخرى، والذي أشار إلى النظام الرأسمالي و دوره التقدمي الثوري في دفع القوى المنتجة إلى الامام مقارنة بالتشكيلات التي سبقتها، وتوسيع الصلات بين الأمم، ونشر المدنية، وجمع المقاطعات في دولة واحدة وأمة واحدة، وغير ذلك. ولكن "البيان" كشف الطابع الاستغلالي لهذا النظام وأثره على البروليتاريا والمجتمع، وهو ما أكدته المعطيات أعلاه، ودعا إلى تجاوز ذلك النظام وإقامة نظام جديد يكون بدايةً للتشكيكة الشيوعية.

ولهذا يختتم "البيان" هذا الجزء بقوله: "إن البروجوازية تنتج قبل كل شيء حفاري قبرها، فسقوطها وانتصار البروليتاريا كلاهما أمر محتوم لا مناص منه"<sup>34</sup>.

وفي الفصل الثاني الموسوم: "البروليتاريون والشيوعيون" – وضع ماركس وانجلس أهداف الصراع الطبقي والتغيرات التي تطرأ على المجتمع: البروليتاريا تتكون في طبقة، وهذا هو الشكل الاولي لادخال الوعي إلى الواقع الموضوعي ويليه إزالة سيطرة البرجوازية باستيلاء الطبقة العاملة على السلطة السياسية.

في هذا الفصل أوضح ماركس وأنجلس الدور التاريخي لحزب الشيوعيين باعتباره حزب الطبقة العاملة وطلبتها. والهدف المباشر للشيوعية هو "تنظيم البروليتاريين في طبقة وهدم سيادة البرجوازية واستيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية"<sup>35</sup>. وقد قدم ماركس وأنجلس في هذا الفصل فكرة دكتاتورية البروليتاريا، وشرحا علاقة الشيوعي بالعائلة والملكية والوطن، ووصفا الخطوط العامة للإجراءات الاقتصادية التي يتعين على البروليتاريا اتخاذها بمجرد توليها السلطة.

من المفيد الإشارة هنا إلى أن الوعي والتنظيم انعكاسان لعملية المنافسة والتعاون البنوية التي لا تعود إلى أي إرادة فردية أو جماعية. والنضالات المتعددة التي تشنها البروليتاريا تمثل مكوناً جوهرياً في عملية تحويل التغيير البنوي إلى تغيير أيديولوجي وتنظيم. لكن هذه النضالات نفسها تجد جذرها في التغيرات البنوية. وهذا هو "الفهم" الوحيد الذي يمكن "إدخاله" إلى البروليتاريا بصورة مفيدة من خارج شروط حياتها: "إن الشيوعيين لا يمثلون حزباً خاصاً معارضاً لأحزاب العمال الأخرى. وليست لهم مصالح منفصلة عن مصالح البروليتاريا بمجموعها. وهم لا يدعون المبادئ خاصة يريدون تكيف الحركة البروليتاريا في قالبها"<sup>36</sup>.

وهنا إذن ينطرح السؤال التالي: ما الذي يميز إذن الشيوعيون عن أحزاب الطبقة العاملة الأخرى؟

<sup>34</sup> ماركس، انجلس، بيان الحزب الشيوعي (موسكو: دار التقدم، 1974)، ص 56

<sup>35</sup> المصدر السابق، ص 58

<sup>36</sup> المصدر السابق، ص 57

ردا على هذا السؤال يجيب "البيان" إنهم يتميزون بما يلي فقط<sup>37</sup>:

1. " في النضالات التي يقوم بها البروليتاريون من مختلف الأمم، يضع الشيوعيون في المقدمة ويبرزون المصالح المستقلة عن الجنسية والعامية الشاملة لمجموع البروليتاريا بغض النظر عن قوميتها، ويبرزون ذلك في المقدمة.
2. في مختلف مراحل التطور التي يمر بها النضال بين البروليتاريين والبرجوازيين يمثل الشيوعيون دائما، المصالح العامة للحركة بكاملها".

وبالتالي، فإن الشيوعيين من الوجهة النظرية يمتازون عن بقية العاملين بادراك واضح لظروف الحركة العمالية وسيرها واهدافها العامة، وأن هدفهم المباشر هو الهدف نفسه الذي ترمي إليه احزاب العمال، اي تنظيم العاملين في طبقة والاستيلاء علي السلطة السياسية وإلغاء الملكية الرأسمالية التي تقوم على استغلال واستنزاف وإفقار العاملين. وأن الشيوعية كما يوضح "البيان": "لا تسلب أحدا القدرة على تملك منتجات اجتماعية، انها لا تنزع سوى القدرة علي استعباد عمل الغير بواسطة هذا التملك"<sup>38</sup>.

بهذا المعنى فانه وبحسب "البيان" يعتبر الشيوعيون أكثر قسم في أحزاب الطبقة العاملة تقدما و ثباتا في جميع البلدان، ذلك القسم الذي يدفع كل الآخرين إلى الأمام. و من جهة أخرى، نظريا، هم يمتازون عن الكتلة الضخمة للبروليتاريا بالفهم الصحيح لخط المسيرة و الظروف و آخر النتائج العامة لحركة البروليتاريا.

وفي الفصل الثالث – " الادب الاشتراكي والشيوعي " – قدم ماركس وانجلز نقدا عميقا للاتجاهات البرجوازية والبرجوازية الصغيرة المتكثرة تحت لواء الاشتراكية، وحددا موقفهما الخاص من المذاهب الاشتراكية والشيوعية الطوباوية. وهنا تجب الإشارة الى أن بداية الشيوعية و الاشتراكية لم تكن مع ماركس و أنجلس. لقد كان هناك من قبلهم مفكرون ممن دافعوا عن فكرة مجتمع دون طبقات مبني على الملكية المشتركة مثل روبرت أوين Robert Owen ، فوريي Fourier، سان سيمون Saint Simon و غيرهم. كتب توماس مورور Thomas More مع حلول القرن السادس عشر كتابه الشهير يوتوبيا Utopia ، الذي يصف مجتمعا شيوعيا. وحتى قبل ذلك، نظم المسيحيون الأوائل أنفسهم في تجمعات كانت الملكية الخاصة فيها مقصية دينيا، و يمكن لأي كان قراءة ذلك في عقود أبوستلس The Acts of the Apostles .

وصف ماركس و أنجلس كل تلك النزعات الشيوعية بالطوباوية، فما كان يدافعان عنه كان شيئا مختلفا تماما (الشيوعية العلمية). وهنا ينطرح السؤال التالي: أين يكمن الاختلاف؟ ليست الشيوعية بالنسبة للطوباويين سوى فكرة جيدة، و شيء مرغوب فيه أخلاقيا و على الناس الاقتناع به من خلال الوعظ. انطلاقا من هذه الحيثية، لو كانوا على حق، لبرز ذلك المجتمع إلى الوجود منذ ألفي سنة، مما كان سيجنب الجنس البشري الكثير من الشدائد.

يقول "بيان الحزب الشيوعي" في إحدى أشهر أجزائه: إن تاريخ كل مجتمع إلى يومنا هذا لم يكن سوى تاريخ الصراع بين الطبقات، لكن ما هو صراع الطبقات؟ إنه ليس بأكثر و لا أقل من الصراع من أجل قسمة الفائض الذي تنتجه الطبقة العاملة. و لن يكون أبدا بالإمكان تفادي هذا الصراع حتى تبلغ القوى المنتجة مستوى كاف من التطور يسمح لها بإلغاء الفقر و نقص الإنتاج، ليس فقط للأغلبية المتميزة، لكن لكل شخص. الشيوعية إذا ليست بمجرد "فكرة جيدة" يمكن

<sup>37</sup> كذلك، نفس الصفحة

<sup>38</sup> ماركس، انجلس، بيان الحزب الشيوعي ...، مصدر سابق، ص 61.

خلقها في أي حالة طالما أراد الناس ذلك. الشيوعية كقاعدة مادية مبنية على درجة التطور الصناعي والزراعي والعلمي والتكنولوجي.

كانت الأشكال المختلفة من الاشتراكية المطروحة في ذلك الوقت تميل إلى التطلع للوراء، نحو مجتمع يفترض أنه أفضل قبل تجاوزات الرأسمالية. وكان أنصارها يفتقدون لأي استراتيجية لتغيير المجتمع فيما عدا تقديم النداءات لممثلي الطبقات القديمة الذين يعانون أنفسهم من هجمات الرأسمالية، أو الرأسماليين من ذوي العقلية الليبرالية، أو النداءات العامة والمجردة لـ "الحقيقة" و "العدالة". وكان ماركس وأنجلس شديدي الحدة في نقدهما لتلك التيارات الاشتراكية المختلفة. فبعد شرح نظريتهما عن الاشتراكية، كانا ينخرطان في سجال ضد من يتناقسون على كسب العمال لأفكار مغايرة. ويناقشان مختلف أشكال الاشتراكية<sup>39</sup> التي راجت في السنوات السابقة على كتابة "البيان"، ويبدئان بالتحليل المادي للأسباب التي جعلت هذه الأشكال من الاشتراكية تجد لها جمهوراً. إن النظريات الاشتراكية المختلفة تعبر عن محاولات شتى لطبقات وقوي اجتماعية مختلفة كي تتعامل مع ظاهرة الرأسمالية.

أما في الفصل الرابع - " موقف الشيوعيين من مختلف أحزاب المعارضة " - عرض ماركس وأنجلس تكتيكات الشيوعيين إزاء الأحزاب المعارضة المختلفة. ويشرح هذا الفصل المبادئ الأساسية للاستراتيجية والتكتيك في الحركة الشيوعية مما يدل على أن ماركس وأنجلس كانا لا ينظران إلى الأهداف القريبة فحسب بل إلى مستقبل الحركة أيضاً. وهنا يشير "البيان" إلى "أن الشيوعيين يناضلون في سبيل المصالح والأهداف المباشرة للطبقة العاملة، إلا أنهم في الحركة الحالية يدافعون في الوقت نفسه عن مستقبل الحركة"<sup>40</sup>. ويعلنان هنا "أن الشيوعيين يؤيدون في كل قطر من الأقطار كل حركة ثورية ضد النظام الاجتماعي والسياسي القائم"<sup>41</sup>.

وينتهي "بيان الحزب الشيوعي" بالشعار الخالد: "يا عمال العالم، اتحدوا" وكذلك التأكيد على التالي: "فلترتعش الطبقات الحاكمة أمام الثورة الشيوعية. فليس للبروليتاريا ما تفقده فيها سوى قيودها وأغلالها، وتربح من ورثها عالماً بأسره"<sup>42</sup>. وقد كتب لينين عن هذا العمل قائلاً: "إن هذا الكتيب يستحق مجلدات بأكملها فحتى يومنا هذا لا تزال روحه تلهم وتوجه كل البروليتاريا المنظمة والمناضلة في العالم المتمدن".

### **الاطروحة الرئيسية في "البيان"**

إن الاطروحة الأساسية التي تشكل نواة "البيان" حسب مقدمته للطبعة الانكليزية هي:

"إن الأسلوب الاقتصادي السائد في الإنتاج والتبادل يشكل، في كل حقبة تاريخية معينة، مع التنظيم الاجتماعي المنبثق بالضرورة عنه، الأساس الذي يقوم عليه تاريخ هذه الحقبة السياسي والفكري، والذي يمكن بالاعتماد عليه فقط تفسير هذا التاريخ"<sup>43</sup>.

<sup>39</sup> من قبيل: الاشتراكية الاقطاعية، الاشتراكية البرجوازية الصغيرة، الاشتراكية المحافظة أو البرجوازية... الخ. لمزيد من التفاصيل

قارن: ماركس، أنجلس، بيان الحزب الشيوعي...، مصدر سابق، ص 69 - 82.

<sup>40</sup> المصدر السابق، ص 83.

<sup>41</sup> المصدر السابق، ص 85.

<sup>42</sup> نفس المصدر السابق، ص 85.

<sup>43</sup> كذلك، ص 19-20.

ومن جانبه أشار أنجلس في مقدمة له في 28/يونيو/1883، بعد وفاة ماركس الى ان **الفكرة الرئيسية** في "البيان" هي: "أن الانتاج الاقتصادي والبناء الاجتماعي، الذي ينشأ بالضرورة عنه، يؤلفان في كل عهد تاريخي أساس التاريخ السياسي والفكري لهذا العهد، ولذا فالتاريخ بأسره (منذ انحلال الملكية البدائية المشاعية للأرض) كان تاريخ نضال بين الطبقات: الطبقات المستثمرة والطبقات المستثمرة، الطبقات المسودة والطبقات السائدة في مختلف مراحل تطورها الاجتماعي؛ ولكن هذا النضال وصل في الوقت الحاضر الي مرحلة اصبحت فيها الطبقة المستثمرة المرهقة (وهي البروليتاريا) لاتستطيع ابدا أن تتحرر من نير الطبقة التي تستثمرها وترهقها (وهي البورجوازية) دون أن تحرر في الوقت نفسه، والي الأبد، المجتمع بأسره من الاستثمار والارهاق، ومن نضال الطبقات"<sup>44</sup>.

تشكل هذه الاطروحة الاساسية جوهر الطريقة المادية والاقتصاد السياسي العلمي عند ماركس وانجلس. ويقدم "البيان" هنا نموذجا مشخصا لاستخدامه لهذه الطريقة ببعديها الجدلي والتاريخي، على الحياة الاجتماعية في زمان ومكان محددين.

### **تطوير النظرة الطبقة/تعزيز "البيان" للكادحين وموقفه المضاد للاستغلال**

كانت هذه الاطروحة الاساسية/النواة قد نضجت عند ماركس و أنجلس قبل صياغتهما لـ "البيان"، وتحديدًا عام 1845. وبما يتناسب معها صاغًا نظريتهما حول الطبقات والصراع الطبقي، وهي موضوع القسم الاول من "البيان" – البرجوازيون والبروليتاريون.

تحفظ هذه النقطة بكل قوتها، ولم يزد لها الزمن إلا أهمية واشراقًا. فالنظام الرأسمالي، وعلى مدى كل العقود التي تلت صدور "البيان"، لم يستطع تجاوز طابعه الاستغلالي، ويبدو انه لن يستطع. فوجود النظام الرأسمالي مرتبط بالاستغلال والهيمنة والاستقطاب. ويظل تشبث الكادحين بنزوعهم الانساني التحرري وحلمهم الى العدالة منطلقًا لازمًا لكشف الاستغلال الذي تسعى الرأسمالية الى ستره بغلالات عنصرية، كما يظل قاعدة لوعي حقيقة الرأسمالية وللنشاط التغييرى التقدمي.

لم تقتصر أهمية هذه الاكتشافات على نظرية الطبقات والصراع الطبقي في "البيان"، بل تعدتها الى مهمة "البيان" نفسه. فبينما كانت مهمته تتحدد في "ان يعلن الهلاك المقبل حتمًا للملكية البرجوازية المعاصرة" اصبح عليه ان يجيب عن السؤال حول امكانية انتقال شكل الملكية المشاعية للأرض مباشرة الى الشكل الاعلى للملكية العامة أم عليها ان تمر في البدء في تلك السيورة من التفسخ التي وجدت في التطور التاريخي للغرب؟<sup>45</sup>.

واستنادًا الى المنهج الماركسي في جدليته وماديته وتاريخيته فقد نظر "البيان" الى الرأسمالية في سيرورتها، أي في نشوئها وتطورها، والدور الذي لعبه السوق في هذه العملية. فمن اثنان القرون الوسطى نشأت عناصر المدن الاولى الذين خرجت منهم العناصر الاولى للبرجوازية، وقد أمنت الاسواق الجديدة نموا سريعًا للعنصر الثوري في المجتمع الاقطاعي الأخذ في الانحلال. ونتيجة اتساع وتعاضم الاسواق أخلت الفئة الصناعية المتوسطة الميدان لرجال الصناعة اصحاب الملايين. وبالمقابل فإن نشوء السوق العالمية أدى الى نمو وتعاضم وتضاعف رساميل البرجوازية. وبدافع الحاجة الدائمة الى اسواق جديدة انطلقت البرجوازية الى جميع انحاء

<sup>44</sup> ماركس، انجلس، بيان الحزب الشيوعي...، مصدر سابق، ص 13-14.  
<sup>45</sup> د. ابراهيم قندور، من ملامح البيان الشيوعي...، مصدر سبق ذكره، ص 19.

الكرة الارضية، وباستثمار السوق العالمية تصبغ البرجوازية الانتاج والاستهلاك في كل البلدان بصيغة كوسمبولوتية وتنتزع من الصناعة أساسها الوطني.

## أسس "البيان" المنهجية

ليس "البيان" مرجعا في المنهج، وقد لا نجد بين مؤلفات ماركس وانجلس مثل هذا المرجع، بل قد يكون على الباحث ان يتلمس المنهج في دراساتها ومؤلفاتها كلها. ولكننا نلمس في "البيان" عدة اسس منهجية واضحة من بينها وأهمها:

● **الرؤية التاريخية:** فالظاهرة تدرس في سياق تطورها، ارتباطا بأسبابها ومقدماتها، وتفحصا لسيروورتها وتمعنا بخصائصها وحركتها وتحولاتها، وتلمسا لما تنطوي عليه من أجندة مستقبلية. لم يتناول واضعا "البيان" الرأسمالية بوصفها كيانا مستقلا، بل توغلا في عمقها التاريخي مبينين صلتها بما سبقها من انظمة اقتصادية – اجتماعية وتولدها في احشاء الاقطاعية، وتراكم عناصرها على التدريج لتتحول الى نظام سائد. كما انهما لم يغلقا التاريخ على هذا النظام، فأشارا الى سيروورته المقبلة استنادا الى ما سبق.

● **الانطلاق المادية:** ف "البيان" من المؤلفات الماركسية المبكرة التي تنطلق من:

- ان الوجود المادي هو اساس الفكر ومكونه (جدلية الوجود/الوعي)؛  
- وان المفاهيم والقيم والافكار كلها هي انعكاس للواقع، تتطور بتطوره. في هذا المجال يشير "البيان" الى ما يلي: " ... هل يحتاج المرء الى تعمق كبير ليدرك ان نظرات الناس ومفهوماتهم وتصوراتهم الفكرية، أو بالاختصار ادراكهم، يتغير مع كل تغير يطرأ على ظروف حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية وشروط معيشتهم الاجتماعية؟<sup>46</sup> لكن تأكيد ماركس و أنجلس هذا، على أولوية الواقع المادي، لا ينفي دور الفكر في تغيير الواقع، فالفكر – وفقا لمادية "البيان"، ليس سلبيا، ليس تابعا فقط. فمع تفسخ العلاقات القديمة تنفسخ الافكار المعبرة عنها والمنبتقة منها، وتقوم الافكار الجديدة بالمساهمة في هذا التنفسخ. ان "البيان" يضع علاقة الفكر بالواقع في سياقها السليم، الديالكتيكي، فالفكر انعكاس، لكنه انعكاس ايجابي، فاعل، ينشأ من الواقع ويواكب التطور ويؤثر فيه. تعني الاطروحة السابقة انه يجب أن لاناخذ هذه القضية من جانب واحد، إذ لصحيح أن الوجود الاجتماعي يحدد الوعي الاجتماعي، لكن وفقا لقوانين الديالكتيك والانعكاس المتبادل، فان الوعي الاجتماعي أيضا يؤثر على الوجود الاجتماعي ويعمل علي تغييره في علاقة ديالكتيكية متشابكة ومتبادلة، وقد عبر ماركس عن ذلك بقوله ان الافكار تتحول الى قوة مادية عندما تؤثر على الجماهير وتنبناها. وهذا هو جوهر نظرية ماركس التي تتعارض مع الفصل الميكانيكي بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي أو بين البنية التحتية والبنية الفوقية للمجتمع. فالعلاقة بين البنية التحتية والفوقية علاقة انعكاس معقدة لايجوز التبسيط فيها، كأن نقول مثلا أن أى تغير في الاساس الاقتصادي يؤدي بطريقة ميكانيكية وسريعة الي تغيير في البنية الفوقية. صحيح أن البنية التحتية تحدد البنية الفوقية، ولكن للبنية الفوقية استقلالها النسبي، وتلعب دورها أيضا في تغيير وتحويل البنية التحتية. وفي التاريخ الكثير من الأمثلة على ذلك.

● **المنهج الجدلي:** من المعروف ان ماركس كان تلميذا نجيبا لهيغل، ومولعا متبصررا بالجدل الهيغلي، ومطبقا مبدعا له في حقل العلوم الاجتماعية، رغم ان ماركس هو من أوقف الجدل الهيغلي على قدميه بعد ان كان واقفا على رأسه. وماركس و أنجلس في "البيان" وما سبق من اعمال لهما مشتركة أو غير مشتركة كانا يدرسان الظاهرة

<sup>46</sup> ماركس، انجلس، بيان الحزب الشيوعي ...، مصدر سابق، ص 65.

وتطورها من خلال الكشف عن تناقضاتها الداخلية، والسيرورة الناجمة عن صراع هذه التناقضات في اطار وحدة الظاهرة المدروسة والمتخذة شكل نفي الصورة القديمة للظاهرة من قبل جديد يتكون على التدرج وعبر تراكمات متتالية. هذا الاسلوب الجدلي يبرز في عرض "البيان" كيفية تكون النظام الرأسمالي وتطوره ومصيره المتوقع.

### مفاتيح لقراءة " البيان "

قراءة " بيان الحزب الشيوعي " اليوم، مهمة وذات مفاتيح متعددة، تشكل بمجموعها كلاً واحداً ومتكاملاً، ومن الممكن طبعا، حسب المفكر الفرنسي جورج لابيكا<sup>47</sup> تقديم هذا المفتاح أو ذاك، شريطة أن لا ننسى أننا بصدد دراسة قضية معاصرة.

### أولاً: وضع النص (البيان)

1. طابعه الاستثنائي، ان لم يكن الفريد هو الايجاز (اذ تتألف الطبعة الاولى من 23 صفحة)، بالقياس لانتشاره الواسع جدا والذي وحده يستحق الدراسة.
2. تُرجم الى كل اللغات تقريبا ونُشر في جميع البلدان تقريبا.
3. قرأه جمهور واسع جدا.
4. لم يكن موضع منازعة، ولا رفض، على العكس من الاعمال الاخرى لماركس أو أنجلس ككتاب ماركس "رأس المال" مثلا.
5. مكتوب بصيغة ايجابية، بخلاف معظم الاعمال الاخرى ذات الطابع النقدي أو الهجومى.
6. شكل "البيان" لب كتابات ماركس، فهناك ما قبله وما بعده.

### ثانياً: تحضير البيان

1. الكتابات التحضيرية المباشرة: قوانين رابطة الشيوعيين، مشروع "إعلان مبادئ" شيوعي، مبادئ الشيوعية.
2. النصوص السابقة للبيان: الكتابات الاولى (تقدم الاصلاح، الايديولوجية الالمانية، حول فيورباخ.....، نشرة ضد كريبج، بؤس الفلسفة).
3. الحركات والتنظيمات الاشتراكية والشيوعية، نشاطات ماركس وانجلس.

### ثالثاً: معناه

1. الخطة والتنظيم.
2. قطيعة في الحركة الاشتراكية: مع الطوباويات المساواتية ومع الاصلاح البرودونى.
3. تجديد في البرنامج السياسى.
4. أول مؤلف يقدم بديلاً للرأسمالية ويبشر بالثورة (1848).
5. ادخال عدد من المفاهيم التي تشكل هيكل المادية التاريخية، منها:
  - تلك المتعلقة بنظام الانتاج (اقطاعي، برجوازي، شيوعي)،
  - وبالطبقات الاجتماعية (البرجوازية، البرجوازية الصغيرة، الطبقات المتوسطة، البروليتاريا، حثالة البروليتاريا)،
  - " وجهة نظر طبقية "، أزمة، سلطة، هيمنة/استغلال، نضال (سياسي، اقتصادي)،
  - تحالفات، احلاف، حزب، أممية.

<sup>47</sup> جورج لابيكا، حول البيان، الشيوعية اليوم، قراءة البيان، "النهج"، عدد 1998/50، ص 123 ولاحقا.

- فوق كل التعريفات كان هناك اثنان هما: الديمقراطية والثورة.

### "البيان الشيوعي" واشكالية الديمقراطية

صدر "البيان" في مرحلة خاصة ودقيقة من تاريخ أوروبا الحديث، كانت تتسم بسمات هامة عديدة، منها انها مرحلة بحث جاد من قبل قوى اجتماعية عديدة ومفكرين متنوعي المذاهب، عن اشكال جديدة للديمقراطية.

كانت البرجوازية وهي تخوض معركتها ضد الاقطاع قد طرحت شعارات تقدمية كالحرية والاخاء والمساواة، وحق الفرد في التعبير والتحزب، وغير ذلك من شعارات ديمقراطية، وجدت فيها معادلا سياسيا للحرية الاقتصادية التي تركز عليها. وكانت مسيرتها - أي البرجوازية - نحو الهيمنة تقتضي جناحين: حرية اقتصادية، وحرية سياسية، وبهذين الجناحين خلقت مخلفة وراءها علاقات الاقطاع المتخلفة.

ولابد هنا من بعض الملاحظات حول العلاقة بين الليبرالية والديمقراطية ضمن الرؤية البرجوازية لهذه العلاقة.

يعود مفهوم "الليبرالية" بجنوره الفلسفية إلى مذاهب (جون لوك) والتنويريين الفرنسيين بخاصة، وقد تبلور في أوروبا القرنين السابع عشر والثامن عشر، كبرنامج أيديولوجي للبرجوازية الصاعدة من رماد الاقطاع، وكتعبير ثوري عن حاجتها الملحة اقتصاديا وسياسيا لتحطيم كافة الحواجز القائمة على طريقها في طبيعة وقوانين وميكانيزمات النظام الاقطاعي المدعوم من الإكليروس الكنسي، والذي لم يعد يناسب، آنذاك، مقتضيات حركة رأس المال والسلعة من حيث السرعة واليسر، إلى جانب تكيله لحرية اختيار المهن وانتقال الأيدي العاملة المطلوبة بالحاح لتطور الصناعة، حيث كانت القوانين السائدة تجبر الفلاحين الأفتنان وأبنائهم على البقاء في خدمة "أسيادهم" كأصناف عبيد.

وبما أن تلك الضرورات في مستوى البنية التحتية للمجتمع infrastructure كان لا بد لها من تحويلات كبرى تناسبها في مستوى البنية الفوقية superstructure، فقد قام المفكرون الليبراليون، فيما بين نشوء حركة الإصلاح الديني، الطور الأول من عصر الحداثة، وبين اندلاع الثورة الفرنسية (1789)، بتدمير الأسس النظرية للنظام القديم الذي كانت (النبالة) فيه عنواناً لـ (الامتياز)، كما كانت الحقوق هي المعادل الموضوعي لـ "حيازة الأرض"، وبشروا، نظرياً، بمجتمع جديد يمثل مصدر الثروة فيه (رأس المال) القائم في على الملكية الخاصة، وحرية السوق المستندة إلى حرية المنافسة، وجرى تصويره بنشاط على أن فرص الربح وخيارات المنفعة تتفتح فيه أمام الجميع، بحيث تمثل جهود الفرد الاقتصادية المستقلة وحرية في التملك والمنافسة شرعية التمايز، تماماً كما يمثل (العقد) الأساس القانوني لتنظيم العلاقات الاجتماعية. والحقيقة أن الليبرالية الاقتصادية والسياسية تخلفت في رحم النظام الرأسمالي، كنتاج لمرحلة السوق الرأسمالي، ولتبرير حقوق الطبقة البرجوازية الصاعدة، واستندت إلى عدد من النظريات والمبادئ، كنظرية الحقوق والحريات الطبيعية، ونظرية العقد الاجتماعي، ومبدأ المنفعة.

على أن الاقتران بين الديمقراطية والليبرالية لم يقع، تاريخياً، ضربة حظ. بل العكس هو الصحيح تماماً، حيث أن الليبرالية قاومت الديمقراطية رداً طويلاً من الزمن، قبل أن تعود لاستيعابها بالتدريج. فحق التصويت، على سبيل المثال، ظل قاصراً على الطبقات الرأسمالية العليا وحدها حتى الثلث الأول من القرن التاسع عشر. ولم تتمكن الطبقة الوسطى، في إنجلترا، من التمتع به إلا في إثر "الإصلاح الانتخابي" عام 1832م. أما العمال فلم يعترف لهم بهذا الحق، إلا في نهاية القرن التاسع عشر، وأما النساء فقد كان عليهن الانتظار، للحصول عليه، حتى نهاية

الربع الأول من القرن العشرين (1920 في إنجلترا - 1928 في أمريكا).

هكذا، إذن، ولدت الليبرالية إقتصادياً أولاً، ثم تمقرطت بعد ذلك متخذة طابعها السياسى، من بؤابة اضطرار البرجوازية لتوسيع دائرة الحقوق والحريات التى لطالما دافعت عنها أثناء مرحلة نهوضها الثورى، لتشمل كل المواطنين، باعتبار أن هذه الديمقراطية، فى جوهرها، هى تعظيم المساواة فى فرص الحياة فى كل المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتحرير القوى الكامنة لدى الانسان لتحقيق ذاته.

ولا نرى أهمية للجدال هنا حول ما إذا كان **مضمون الديمقراطية**، فى معنى الليبرالية السياسية، يتمثل فى **(المساواة) أم فى (الحريات)**، اللهم إلا من وجهة النظر المدرسية المحضة.

ولكون الديمقراطية ظلت تمثل على الدوام، بهذه الدلالة، السلاح الذى تصارع به جماهير الفقراء والضعفاء لانتزاع حقوقها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتصبو، عن طريقه، لإعادة صياغة العالم الأفضل والوجود المغاير، فقد استحقت دائماً عداء وشك الطبقات والنخب المهيمنة التى يرتبط لديها إقرار الحقوق الديمقراطية للجماهير بتهديد امتيازاتها أو تغيير الأساس الإقتصادى السياسى للمجتمع الذى يوفر لها تلك الامتيازات.

هكذا، وفى ملابسات هذا التناقض بين المصالح الليبرالية الإقتصادية للطبقات البرجوازية الصاعدة وبين المصالح الديمقراطية السياسية للجماهير العاملة، ولعوامل استحالة تحقيق الأولى بدون إيلاء الاعتبار الكافى للثانية، إرتقت الليبرالية من مستوى الحريات الإقتصادية إلى مستوى الحريات السياسية<sup>48</sup>.

ولأن المصطلحات السياسية تعبر فى الغالب عن مفاهيم تعكس الواقع بدورها، من هنا، فإن التفسيرات والمقتربات المتباينة للديمقراطية، تعكس بصورة موضوعية كيفية ممارسة الطبقات المختلفة لسلطتها<sup>49</sup>. لهذا فإن دعاة الاشتراكية والعدالة، المعبرون عن مصالح الكادحين، قد وجدوا الحل الرأسمالى لمشكلة الديمقراطية حلاً ناقصاً، لأنه لا يحقق العدالة. ومع ذلك لا بد من التذكير هنا بملاحظة ماركس اللامحة عن تأسيس الجمهورية فى فرنسا عام 1848 عندما أشار الى أنها، أى الديمقراطية، تساعد على بسط سيادة الطبقة البرجوازية، غير أنها تهيب، فى ذات الوقت، المناخ السياسى الملائم الذى يمكّن المستغلين "بالفتح" من التصدى لمستغليهم "بالكسر"، وتصفية ظروف الاستغلال<sup>50</sup>.

وكان على الماركسيين ان يقدموا اجتهاداتهم فى هذا المجال. ومن هنا جاء طرح "البيان" والماركسية لمشكلة الديمقراطية طرحاً خاصاً نوجزه بما يلي:

- **الطبقة المسيطرة إقتصادياً**، تفرض سيطرة سياسية مماثلة، وتضع **اشكالا** لهذه السيطرة متجلية بالقوانين والمؤسسات التى تحدد مستوى الديمقراطية المناسب لاستمرار تسلطها ونموها.
- وهى بطبيعة الحال **قوانين لا تحقق العدالة التى تريدها الطبقة العاملة والفئات الكادحة**، التى عليها من اجل تحقيق مصالحها النقيضة ان تنتزع الديمقراطية، اى تتحول الى طبقة

<sup>48</sup> لمزيد من التفاصيل قارن: على الدين هلال؛ مفاهيم الديمقراطية فى الفكر السياسى الحديث، ص 35 وما بعدها؛ كذلك: هانز كلسن؛ الديمقراطية: طبيعتها وقيمتها، ص 118، 119، 123 - وكذلك: د. برهان غليون؛ إغتيال العقل: محنة الثقافة العربية بين السلفية والتبعية، ص 229 - 230.

<sup>49</sup> لمزيد من التفاصيل قارن: ارثر كيش، الماركسية والديمقراطية - مساهمة فى مشكلات التفسير الماركسي للديمقراطية. ترجمة:

رجاء أحمد (دمشق: مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية فى العالم العربى، الطبعة الاولى، 1991)، ص 3 ولاحقاً.

<sup>50</sup> قارن: أ. دنيسوف؛ نظرية الدولة والقانون، ص 129.



سائدة تتمكن من اقامة نظام اجتماعي يزيل الاستغلال. وطريق ذلك هو الثورة، التي لا تتحقق إلا في شروط موضوعية وذاتية لا يتسع المجال للدخول في تفاصيلها هنا.

مقاربة "البيان" هذه لمشكلة الديمقراطية، حددت موقفا وممارسة شيوعيين استمررا طيلة الاعوام المائة والسبعين تقريبا. وتتيح هذه المقاربة بلورة الاستنتاجات التالية<sup>51</sup>:

1. ان الماركسية هي بالاصل محاولة ديمقراطية، اجتهاد لحل مشكلة الديمقراطية التي يسعى اليها الانسان. وهي رد على الحل الرأسمالي لهذه المشكلة، لأنه حل ناقص، يقف على قدم واحدة (الديمقراطية السياسية) بأغفاله مشكلة العدالة (الديمقراطية الاجتماعية)، حل يفضي الى "ديمقراطية" تفيد من يملكون وسائل الانتاج ويتحكمون بالثروة وبالسلطة والنفوذ.
2. الماركسية هي بالاصل فكر ديمقراطي ارادت التأسيس لحركة ديمقراطية، لأنها فكر ينطلق من دور الناس، الجماهير الكادحة وهي التي تشكل الأغلبية في المجتمع، ودور الوعي في تغيير الواقع.
3. الماركسية مشروع ديمقراطي، لأنها ترمي الى ازالة الاستغلال، وتخليص الكادحين من حالة الضياع والاعتراب، واطلاق طاقات البشر بعد تحريرها من قيود العلاقات الانتاجية الاستغلالية الرأسمالية.
4. وازافة لذلك فإنه - وبحسب لينين - فإن "الاشتراكية مستحيلة بدون الديمقراطية لأن:  
1. البروليتاريا لا تستطيع انجاز الثورة الاشتراكية، ما لم يجر اعدادها لذلك عن طريق النضال في سبيل الديمقراطية.  
2. لا يمكن للاشتركية الظاهرة ان ترسخ انتصارها، وان توصل البشرية الى زوال الدولة بدون انجاز وتحقيق ديمقراطية كاملة"<sup>52</sup>.

### **حزبنا وتطوير مبادئ "البيان" والمستقبل**

كما قلنا في البداية فان كتابة "البيان الشيوعي" ارتبطت بظروف تاريخية محددة، واليوم بعد مرور 170 عاما على ظهوره نجد انفسنا مدعويين الى قراءته قراءة جديدة محكومة بزماننا وبظروف النضال الملموسة، وبذلك التغيرات التي طرأت على لوحة العالم مع بداية التسعينات من القرن العشرين. فقد وضع ديالكتيك تطور التاريخ المعاصر ومفاجئاته الماركسية ودعاتها أمام منعطف كبير، وزجهم في جو الازمة السياسية العالمية وما تثيره من زوابع وانعطافات ومعارك فكرية.

وقراءة "البيان" محكومة بهدف آخر هو التطلع الى نهضة قادمة للشيوعيين وقوى اليسار مهما اختلف شكل هذا القدوم وصورته. لا نقول ذلك من قبيل التنبؤ المثالي الساذج وانما من قبيل التنبؤ العلمي المشروع الذي يستمد شرعيته من النظرة الجدلية لقوانين التطور الاجتماعي التي تؤكد ان نضال البشر من اجل التقدم الانساني على الصعيد المعرفي والاجتماعي والحضاري سيستمر. ويتوقف قرب هذه النهضة أو بعدها على عوامل كثيرة، بينها كفاءة الشيوعيين وحرصهم على ديناميكية الماركسية وروحها الحية والجدلية، وتعزيز صلتها بالعصر ومشكلاته.

<sup>51</sup> قارن: عطية مسوح، بعد مئة وخميس عاما ما الذي بقي من البيان الشيوعي؟...، مصدر سبق ذكره، ص 51 .

<sup>52</sup> انظر: ف.أ. لينين، الاعمال المختارة، المجلد 23، ص 74. وقد ورد الاقتباس عن ارثر كيش، الماركسية والديمقراطية...، مصدر سابق، ص 63-64.

يعيش حزبنا الشيوعي العراقي في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين مثله مثل بقية الاحزاب الشيوعية واليسارية في العالم، مرحلة معقدة ودقيقة وحاسمة. فالتبدلات التي طرأت على الوضع الدولي وخصوصا بعد انهيار النظام الاشتراكي والتطورات التي رافقتها والتحديات التي برزت على الصعد الفكرية والسياسية والاستراتيجية... الخ، **طرح**ت أمام الحزب مهمة يتوقف على حلها دخولنا الى القرن الحادي والعشرين، الى المستقبل كقوة سياسية وطنية وأممية ليس أقل درجة عن المستوى الذي جسده خلال تاريخ يمتد الى 84 عاما مضت إن لم تكن نطمح الى مستوى اعلى.

لقد تجسدت رؤيتنا لحل هذه المهمات في وثائق مؤتمرنا الوطنية وخصوصا الستة الأخيرة: **الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر** في حدودها العامة **استراتيجية وتكتيكيا** عبر حوار ديمقراطي واسع.

**وأعتقد أن الحدود العامة لرؤيتنا لحل هذه المهمات تتمثل في:**

- **الاستمرار** عبر الحفاظ على هويتنا النظرية واثرائها ؛
- **الحفاظ** على الاستقلال السياسي والفكري والتنظيمي للحزب؛
- **التجديد** عبر تقديم الاجوبة العملية على القضايا الاستراتيجية والتكتيكية التي تطرحها وقائع العصر را هنا ومستقبلا؛
- **مواصلة** ديمقراطية حياتنا الحزبية الداخلية والمساهمة الفاعلة في دفع سيرورة ديمقراطية المجتمع، رغم كل الصعوبات. **إن الربط الجدلي** بين نضالنا من أجل توطيد وتوسيع وترسيخ الديمقراطية ببلادنا، لا يمكن أن يستقيم ويأخذ مصداقيته إلا إذا اقترن بنضال لا يقل تصميمًا وإصرارًا من أجل **تكريس وتعميق الممارسة الديمقراطية في تنظيمات وفصائل حزبا**، على مختلف الصعد والمستويات التنظيمية. وهذا يتطلب إعادة التوزيع المنتج للصلاحيات والمسؤوليات ما بين المستويات الحزبية المركزية والمحلية، وفي إطار منظور حداثي لدور المؤسسة الحزبية في التنظيم والتمثيل والاقتراح والتعبئة، عن طريق التداول والمشاركة، على كل المستويات التنظيمية، في صناعة القرارات وبناء السياسات الحزبية وتطبيقها بابداع. وسيشكل ذلك كله قفزة نوعية في مجال التحديث والتأهيل والتجديد للمؤسسة الحزبية.
- **العننية** كأساس لخطة حزبنا كحزب جماهيري مستقل يتحالف مع قوى طبقية وسياسية متنوعة المشارب والمرجعيات لحل مهام مشتركة في مرحلة تاريخية محددة دون ان يعني ذلك ذوبانه في تلك القوى او ذوبانها فيه.

ان تحقيق هذه المتطلبات، وغيرها الكثير طبعًا، ستجعل من حزبنا قطبا سياسيا فاعلا، جماهيريا، حداثيا وديمقراطيا يقع في صميم حركة التحول والتطور بالبلاد ومواجهة حالات الاستعصاء والاستقطاب الطائفي-الاثني. وبيئت التجربة الملموسة ان **الرهان الرئيسي** هو تطوير وتفعيل جاذبية هذا القطب لمختلف القوى السياسية الحية، في سبيل تطوير عوائق الانتقال الديمقراطي المعقد واحتواء تحديات المرحلة الانتقالية الجديدة التي تجتازها بلادنا، بما يمكن من بناء عراق ديمقراطي اتحادي مستقل وموحد.

إن اعتماد مقارنة التحليل الملموس للحصيلة الملموسة، والتشبيث بمقاربة النقد والنقد الذاتي لتجربة حزبية سياسية، أنضجتها عقود من النضال والتضحيات، وأملتها شروط ومتطلبات المصلحة الوطنية العليا، يظلان السبيل الأقوم للتقييم الموضوعي لدور وأداء الحزب.

تتيح هذه الملاحظات القول بأنه يتعين علينا قراءة "**البيان الشيوعي**" بفكر نقدي تاريخي يؤمن بان **من حق كل جيل ان يتصدى للمهام الحية التي تواجهه**، دون أن يتوهم بأن جميع أسئلة

الحاضر والمستقبل قد قبلت، وان أجوبتها موجودة في لوح محفوظ، وانه يكفي ان تحفظ عن ظهر قلب صيغ الماضي جوابا على كل شيء.

ويعني ذلك انه عبر ماركس وانجلس و "البيان الشيوعي" نستنتق التاريخ مرة اخرى..... لكن نستنتقه في ظروف جديدة وعالم جديد ومشكلات جديدة. اجل نحتاج الى روح "البيان الشيوعي" من اجل أن لا يفقد البشر آمالهم في الخلاص.

## خلاصات

تتيح الملاحظات السابقة استخلاص جملة من القضايا من بينها:

أ. كان "البيان" أول تعبير علمي وعميق ومتماسك عن الوعي الثوري للطبقة العاملة في بلدان أوروبا الصناعية المتقدمة. وكان سلاح البروليتاريا النظري الذي كشف دورها الطبقي الريادي ورسالتها التاريخية العالمية، وهي الرسالة التي يتوقف على النجاح في انجازها تحرير الانسانية قاطبة وبناء المجتمع اللاتبقي الخالي من الاستغلال.

ب. وبالمقابل فـ "البيان" منهج عمل، فهو اذن نص سياسي بل نظري – سياسي بامتياز. وباعتبار أنه مكتوب من طرف مثقفين وموجه لمناضلين فهو يخص الفئتين بنفس الدرجة. ان "البيان"، رغم اسقاط اجزاء منه، ورغم ما اغتنى به من ايضاحات وتصحيحات، وما لحقه من دراسات من قبيل واضعيه أولا وما تلقاه من انذارات من التناقضات الواقعية، انه رغم كل هذا لم يفقد شيئا من قوته الأصلية بل على العكس يبرهن كل على ضرورة الشروع بإعادة كتابته، وهذا ما لم يتوقف واضعاه من عمله اكثر من مرة.

ج. عندما كتب ماركس و أنجلس "البيان"، كانا شابان في عمر (29 و 27 سنة). كانا يكتبان في فترة رد فعل مضطربة و كانت الطبقة العاملة أثناءها عمليا جامدة. "البيان" نفسه كُتب في بروكسل/بلجيكا أين كانا كاتباه مجبران على الفرار كلاجئين سياسيين. لكن في اللحظة التي رأى فيها "البيان" النور لأول مرة في شباط عام 1848 كانت الثورة قد تفجرت في شوارع باريس و خلال الأشهر اللاحقة كانت قد انتشرت مثل حريق مدمر في كامل أوروبا.

د. إذا ما كان للتاريخ اللاحق أن يعلمنا شيئا فهو الآتي: أن لا شيء ولا أحد يمكنه تحطيم الإرادة الواعية للطبقة العاملة لتغيير المجتمع. صحيح، ربما كان هناك العديد من الهزائم المأساوية، مثل هزيمة ثورة 1848، و كمونة باريس، وانقلاب شباط 1963 وحملات البعث على حزبنا في اواخر السبعينات وأخيرا وليس آخرا تصفية لآخر مكسب باق من ثورة أكتوبر في الاتحاد السوفياتي السابق وبعض البلدان الاشتراكية. ولكن، في كل تلك الحالات، كان العمال دائما يستردون من آثار كل نكسة ويعودون إلى طريق النضال، ومن أجل سبب قوي وهو بالأساس أنهم لا يملكون أي بديل غير الانعتاق من قيودهم وبناء عالم خال من الاستغلال والعسف. وهكذا واستنادا الى تجارب التاريخ فانه يمكن تسجيل حقيقة أنه حتى أفسى الهزائم تبدو وكأنها مجرد حلقة من الصراع الذي تخوضه الطبقة العاملة للانعتاق النهائي.

هـ. ولكن بالمقابل، يعلمنا التاريخ أيضا شيئا آخر هو أنه من أجل النجاح، ليس كاف أن تكون مستعدا للنضال، بل إنه من الضروري:

أولا: أن تناضل بوعي ؛

وثانيا: أن تكون مسلحا ببرنامج عمل و رؤية استراتيجية واضحة ترتكن الى تكتيكات ملموسة وشعارات واضحة.

بدون هذا كله، النصر سيفلت منك دائما.

لكن هذه الأشياء لا تسقط من السماء، ليس من الممكن استنباط برامج و مخططات و استراتيجيات عندما تكون الجماهير قد بدأت تتحرك لتحدي الأمر الواقع. هذه الأشياء يجب أن تكون معدة مسبقا. إنه أمر ضروري إدارة عمل تحضيرى بصير للدعاية و التحريض مع ربط نضال العمال و الشباب بالمستقبل الإجمالي لتغيير جذري للمجتمع.

لقد مضت (170) عاما على صدور "البيان الشيوعي"، لكن هذه الراية التي رفع اصحاب هذه الوثيقة اعلامها تبقى برغم كل الضغوط والعداوات والنكسات قادرة على البقاء، وعلى الهام ملايين البشر بحلم جميل، لغد اكثر جمالا<sup>53</sup>. وهكذا إذن بعد 17 عقدا بالتمام والكمال ها هو ماركس يعود إلينا مرة اخرى جناحا يطير بنا الى عوالم ارتادها وعوالم اخرى لم يرتدها، في حين غاب أولئك الذين حاولوا تحنيط فكرته ورؤيته لعالم جديد ونظام جديد في مسطرة عصية على الفهم. تعني الملاحظة السابقة أنه لا يجوز أن نتعامل مع "البيان" (أو مع أي كتاب آخر) كنص مقدس. ولكن هذا شيء، وأن نلقي به في متحف الفكر السياسي على طريقة الأنصار المبتدئين لكل موضة جديدة مهما بلغت تناقضاتها شيء آخر تماما.

في آخر حياته كتب ماركس الى رفيق عمره أنجلس ملاحظة لماحة قائلا: " لو قيض لي كتابة البيان الشيوعي في حينه لصغته بشكل آخر تماما". ينبغي تذكر هذه الملاحظة دوما. اجل نحتاج الى روح "البيان الشيوعي" من اجل أن لا يفقد البشر آمالهم في الخلاص من عذاباتهم وقيودهم ومستغليهم.

تبقى الماركسية قادرة على مواجهة الانتكاسات، وعلى تحدي حتى نفسها كي تصوب الاخطاء، وتنتقل مجددا الى آفاق الحلم المنتظر، الاشتراكي. ان فكرة ما، ونظرية ما غير الماركسية لم تستطع ان تستجمع معها وفي اطارها وتحت راياتها ملايين البشر في كل ارجاء المعمورة كما فعلت الماركسية. ولم يكن ذلك ممكنا بمعزل عن اللبنة الاولى التي صيغت في "البيان الشيوعي" العتيد.

خلاصة القول: إن الأفكار الجوهرية لـ "البيان الشيوعي" لا تزال معاصرة ولا تزال قادرة على تحفيز وإلهام الملايين من البشر للنضال من أجل عالم إنساني أفضل.

### **ليس مفارقة ولا مصادفة... الرايات حمراء والدم الشيوعي واحد**

في شباط من هذا العام تحتفي البشرية بالذكرى الـ 170 لصدور "البيان الشيوعي"، وفي هذا الشهر بالذات من كل عام يحل يوم الشهيد الشيوعي العراقي.

ففي الرابع عشر من شباط من كل عام تحل ذكرى استشهاد قادة حزبنا، الرفاق الأماجد يوسف سلمان يوسف (فهد)، زكي بسيم (حازم) وحسين محمد الشبيبي (صارم). وكما نستمد

<sup>53</sup> قارن: د. رفعت السعيد، عن البيان الشيوعي - بيان لمن .. وعن من؟، "النهج"، العدد 50، السنة 1998/14، ص 111.

العزيمة من "البيان الشيوعي" يقف هذا اليوم (14 شباط)، منارا هادياً نستمد منه الصلابة والعزم في تحدي الإرهاب والصعاب ومواصلة النضال.

تحققُ الرأيةُ الخفاقة... وتحت ظلّالها الحمراء، يتوهجُ اسم مؤسس حزب الشيوعيين العراقيين (فهد) الذي أرّخ باستشهاده زماً بطولياً يليق بكل مناضل نذر نفسه للوطن واجتراح المأثرة. يتواصل قرع الأجراس للأبطال.. إن الموكب يتواصل... وفي الذاكرة يعيد التاريخ توهجه ولنقرأ الأسماء ولنحدق في دم العناوين: سلام عادل سكرتير اللجنة المركزية لحزبنا، جمال الحيدري، جورج تلو، محمد حسين أبو العيس، محمد الجليبي، حسن عوينة، طالب عبد الجبار، حمزة سلمان، عبد الرحيم شريف، محمد صالح العبلي، عبد الجبار وهبي، كامل قزانجي وتوفيق منير.

مسيرة حافلة في الفداء والتضحية، طويلة بطول العراق وعرضه، تشهدُ عليها محطات النضال المعمدة بدم بطلاتنا وأبطالنا. لنحدق في الملامح.. ونتفرس في الوجوه، وننطق بالأسماء.. لنقرأ قائمةً أخرى بأسماء أولئك الذين استشهدوا في السجون، من بين ذلك مجزرتي سجن بغداد وسجن الكوت وانتفاضة الحي الباسلة: دنحا يلدة، نعمان محمد صالح الاعظمي، هادي عبد الرضا، موسى سليمان، احمد سليمان، احمد حسون، صبيح مير، وحيد منصور، احمد علوان، عبد النبي حمزة، رؤوف صادق الدجيلي، مهدي الشيخ حسين الساعدي، المرابي يحيى قاف، الشيخ عبد الواحد وياسين سلو وعلي الشيخ حمود وعطا مهدي الدباس.

وللموصل الحدياء شهداؤها، الشهداء الذين أخذتهم أعواد المشانق ومنصات الرمي بالرصاص وضحايا الاغتيالات، من بينهم: وعد الله النجار، ساطع إسماعيل، محمود إبراهيم وعبد الله الشاوي ومئات الواهبين بلا حدود. ولنقرأ الملحمة الشيوعية من جديد. ففي احد فصولها كركوك مدينة الشعلة الأبدية نُفذَ حكم الإعدام بعشرات من الورود الشيوعية من بينهم: الشيخ معروف البرزنجي، عبد الجبار بيروزخان، مجيد حسين، فالح الجياري، عبد الله توفيق القرداغي، فتاح محمود، سالار توفيق، علي البرزنجي.

تتوهجُ الذكرى... تواصل قافلة أخرى مسيرتها مكلفة بالغار... تمرُّ في شوارعنا ومعهم تاريخاً حافلاً ونضالاً مجيداً: شاكر محمود، ستار خضير، كاظم الجاسم، فاضل عباس المهداوي، وصفي طاهر، ماجد محمد أمين، سعيد متروك، نافع يونس، محمد الخضري، عبد الخالق البياتي، خزعل السعدي، محمد الدجيلي، جواد عطية، فكرت جاويد، عواد الصفار، الياس حنا كوهاري، صبيح سباهي، متي الشيخ، عدنان البراك، صاحب احمد المرزة، فاضل الصفار، حميد الدجيلي، عبد الأحد المالح، بشار رشيد، سهيل شرهان، وليد الخالدي، أبو كريم، خضر كاكيل، أم سرباز، عميدة، أنسام، موناليزا، منعم ثاني، أبو أيار، وشهداء عموم معارك الحركة الأنصارية المجيدة وما أكثرهم، وشهداء النظام الدكتاتوري الإبطال وما أكثرهم وشهداء السنوات الأخيرة من ضحايا حروب الطوائف والميليشيات وجرائم القاعدة وقلول البعث الصدامي، وفي مقدمهم القائد الانصاري وعضو المكتب السياسي لحزبنا الرفيق وضاح عبد الأمير (سعدون) وكامل شياح وهادي صالح (أبو فرات) وفاضل الصراف وأبو ثابت والعشرات من الرفيقات والرفاق الخالدين في ذاكرة شعبنا دوماً.

تقرع الأجراس للأبطال، ويتمجدُ التاريخ وعند مثل هذه الحدود، يكبر الشهيد الشيوعي، ليغدو شهيداً وطنياً، وابن شعبٍ بأسره. لنفسح الطريق للأبطال.. إن القوافل تتواصل.. وتسحب وراءها تاريخنا الناصع.. مزكى بالدم.. والمحبة. فلقد أزهى الدم.. وعلى شجرة النضال العظيمة أعطى

وما زال يعطي ثماره.. ان القوافل ما انقطعت .. وان التاريخ ذات يوم قريب: سيمجد كل هذه الالوف المؤلفة.

تسيرُ المواكبُ، تسحبُ ورائها الزغاريدُ، وقرع الطبول، وآخر الكلمات التي أوصى بها الشهداء لرفاق ورفيقات النضال: إن للعراق شهداءه، وضريبة النضال المقدسة.. من كردستان إلى الفاو.. من خانقين حتى الانبار.. أبطال وبطلات تلتف أيديهم وقلوبهم على طريق الشعب ومن أجل أهدافه النبيلة في الكرامة والخبز والحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية.

ليكن يوم الشهيد الشيوعي مناسبةً لوقفه إجلال وإكبارٍ أمام تلك الدماء الكريمة التي أضاعت لنا الدرب، ومحطة لتكريس مبدأ المعرفة والاختيار الصائب والموقف الأصح. ولا نستثني أحدا ممن سلكوا دروب الكفاح والمحبة والاستشهاد فلا مواقع متباينة للأبطال والشهداء... للشهداء قاماتٌ متساوية.. إن القامات واحدة .. والنبرات واحدة.. والدماء بلون واحد.. بهم وهم يمرون بيننا، على هاماتهم، ما تزال بعد أكاليل البطولة والفخر والتضحية.. وفي شفاههم لم ينقطع النشيد... وعلى أصابعهم دم زهور معتقة. نياهي بهم الامم ونذري أن مواسمنا تكتملُ بأسمائهم، ومن جدارة هذا الذي قدموه تشد طاقة النموذج، وتصبح قابلة للتبني. فقد أودع الشهداء رفاقهم ورفيقاتهم كلمة السر وتعاهدوا على أن " الشيوعية أقوى من الموت وأعلى من أعواد المشائق " ومشوا إلى خلودهم عزلاً إلا من إرادة حب الحياة من أجل " وطن حر وشعب سعيد " .

واليوم، في الذكرى التاسعة والسنتين ليوم الشهيد الشيوعي، نحمل مشاعل الشهداء والشهيدات، قادة حزبنا الأماجد فهد وحازم وصارم ورفاقهم، سلام عادل والحيدري والعبلي وسعدون، والمئات من الواهبين بل الألاف من الكواكب اللامعة من أبطال وبطلات حزبنا والحركة الوطنية والديمقراطية، نسير على دروبهم المضيئة، ونلتقي الأحياء ممن واصلوا رفع الراية لتبقى خفاقة. نطوفُ المعاملَ وأرض النخيل، وحقول الذرة والحنطة، والأهوار، نخوضُ في لجة الماضي والآتي، في قرانا وبيوت العمال والفقراء التي تتطلع الى الفجر، ولم تعرف الكهرباء، استوطنتها الأمراض، وقتك فيها المستغلون، وسماسرة المدن وسراق المال العام. هناك في الريف وفي المعامل والمحتشدات الجماهيرية، حمل شهداء الحزب راياته وطافوا بها في قلوب الفلاحين الفقراء والعمال البسطاء، علموهم أبجدية القراءة والنضال، وقادوهم وسط رياح الظلام، وهم يحملون مشاعل الحزب وكلماته، ويناضلون من أجل فجرهم، الذي هو فجر إخوانهم من الكادحين والفقراء وشغيلة اليد والفكر.

واليوم، في هذا العام، حيث تزهو الدماء الشيوعية، على شجرة النضال العظيمة التي أعطت وما تزال تعطي ثمارها. وها هي بصمات قوافل شهداء حزبنا تلوح في كل ساحات النضال، وكل نصبه. إن دمائهم تُضيء جميع المكاسب التي أحرزتها، وعلى عناوين كل الانتصارات التي تحققت، وأجسادهم التي درأت موجات الغدر المتتالية ومحاولات قمع الحزب على مر عصور ذهب منفذوها الى مزبلة التاريخ وسيلقي نفس المصير كل من يتناول على حزبنا.

أجل شهداؤنا هم تاريخنا الناصع دوما... إن الدماء التي أرخصوها هي خلاصة المحبة، والوعي، والإرادة الصادقة، والشجاعة وروح الاقتحام.. إنهم بشائر الخير لأنهم حافظ في ضمائر رفيقاتهم ورفاقهم ممن يواصلون المسيرة اليوم، رغم كل الصعاب، على خطاهم كما كانوا بالأمس حين يشتد الليل نراهم نجوماً للأفق الرحب. إنهم اليوم، كما كانوا دوماً، علامات خضر في الطريق المجيدة المفضية إلى " وطن حر وشعب سعيد ". بهم يشمخ الحزب... وبمن ظلوا خالصاً على المبادئ العظيمة تتواصل المسيرة من أجل بناء عراق ديمقراطي فيدرالي موحد واقامة دولة مدنية ديمقراطية عصرية محل دولة المحاصصات والهويات الفرعية.

**المجد كل المجد لشهداء وشهيدات حزبنا..... ولكل شهداء الحركة الوطنية.... لكل شهداء الشعب والوطن..!**